

د. زهير منصور العزيمي

رواية

سلة ورسائل المطر



www.zumord.net



شركة مسارات القيم المجتمعية
للاستشارات الاجتماعية

www.zumord.net



شركة مسارات القيم المجتمعية
للاستشارات الاجتماعية

2025

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، وجميع المحامد، وجميع
أنواع الشكر والثناء مستحقة لله تعالى وحده لا شريك له، والصلاة
والسلام على رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

العب مع المطر

انهمر المطر بغتة، فتفرّ الناس إلى المظلات ومداخل المحال.
عند محطة الحافلات، جلست أم شابة تحاول أن تُمسك بطفلها ذي
الأعوام السبعة، بينما كان يمد يده الصغيرة خارج المظلة، يتأمل
القطرات كأنها لعب شفاف تتساقط من السماء.

قالت الأم بقلق:

"عد إلى هنا، ستبتل ثيابك".

لكن الطفل، وقد استدرجته دهشة المطر، أفلت من يدها وركض
خطوة خارج المظلة، فترك القطرات تنهمر على وجهه وثيابه،
وأطلق ضحكة بريئة.

جلس غير بعيد عنهما سالم في الثلاثينيات، يتابع المشهد بهدوء. لم
يتدخل، لكنه لم يستطع أن يمنع ابتسامة خفيفة ظهرت على شفثيه،
ثم قال للأم بصوت هادئ:
"يبدو أن ولدك يرى في المطر ما لا نراه نحن".

التفتت إليه الأم وقالت:

"إنه لا يعرف عاقبة ما يفعل. أنا لا أرى في المطر إلا خوفًا من أن
يبتل جسده".

صاح الطفل بفرح، وهو يقفز في بركة صغيرة:
"وأنا أرى فيه لعبًا وضحكًا!"

سكتت الأم، وبقي الرجل ينظر إلى القطرات تنحدر متسارعة، وفي داخله تساؤل لم يبح به:
"المطر واحد... ولكن كيف تحوّل في أعيننا إلى صور متباينة؟"

كيف تُبصر؟

كان المطر قد ازداد غزارة، فالتجأ بعض المارة إلى مقهى صغير على ناصية الطريق. دخل سالم، ودخلت مسرعة الأم وطفلها، فامتلاً المكان برائحة القهوة الممزوجة بعبق الأرض المبتلة. جلس إلى الطاولة المجاورة تاجر معروف في الحيّ، يحدّق من النافذة بوجه عابس، يتمتم ساخطاً:
"سيغلق المطر السوق قبل أن أصل، ضاع يومٌ من رزقي".
وعلى الطاولة المقابلة، جلس فلاح مسنّ جاء من الريف القريب، يبتسم وهو يراقب المطر، ثم قال بصوت رخيم:
"الحمد لله، سقيا ورحمة. زرعنا كاد يهلك من العطش، فجاء الغيث في أوانه".

رفع الطفل رأسه من حضن أمه وصاح مبتهجاً:
"رأيت ماما كم كان المطر يبهج الجميع!"
ضحك بعض الجالسين، بينما ظلّ سالم يتأمل الوجوه. مرة أخرى تردّد في ذهنه السؤال:

"المطر لم يتغيّر، ولكن لماذا انقسم إلى رزق عند هذا، وخسارة عند ذاك، ولعبة عند طفل؟"

شعر أن الجواب لا يكمن في السماء ولا في الأرض، بل في العيون التي تنظر... وفي القلوب التي تُبصر.

مصاحبة القطرات

عاد سالم إلى شقته مع حلول المساء. خلع معطفه المبتل ووضعه على الكرسي قرب النافذة. جلس وحده في الصالة، لا صوت إلا قطرات المطر تطرق الزجاج.

شعر بالراحة مع صوت تلك القطرات بعد يوم عمل ثقيل كمسؤول عن شؤون الموظفين في إحدى الشركات الكبرى، بعيدا عن دوي الميزانيات، وعقود العمال، وتنظيم الطواقم.

فتح الحاسوب أمامه، أخذ يتفقد بريده الإلكتروني على عجل. توقّف عند رسالة تحمل عنوانًا مقتضبًا: "تنويه عاجل من الإدارة." تردّد لحظة، ثم فتحها. لم تكن رسالة عادية، لكنها حملت كلمات مقلقة إذ كانت بدرجة تعميم عام من قبل المدير العام: "نظرًا للظروف الراهنة، قد يطرأ تعديل على أوضاع بعض الموظفين... وسيُبلغ كل شخص بالمستجدات قريبًا."

قرأها مراراً، وكأنها تحمل أكثر مما كُتبت.
تسلل إلى نفسه شعور بالقلق:
"هل أكون أنا المقصود؟"

أدار رأسه نحو النافذة، المطر لا يزال ينهمر. تذكر أصوات النهار:
الطفل الذي رأى في المطر لعباً، الأم التي رأت خوفًا، الفلاح الذي
اعتبره رزقًا، والتاجر الذي لعنه كخسارة.
سأل نفسه بصوت خافت:
"وأنا... أي صورة سأرى لو تغير مطري الخاص؟"
ظلّ جالسًا في العتمة، وبين يديه رسالة لم تقل كل شيء، لكنها
غرست في قلبه بذرة أزمة قادمة.

ليلة الأرق

تقلب في فراشه طويلاً، والرسالة الغامضة لا تفارق ذهنه. المطر
لم يتوقف، كأنه يطرق على نافذته بأسئلة بلا أجوبة.
أمسك بهاتفه، واتصل بصديقه الحميم الذي طالما كان يجمعه معه
حوارات، ويجلّه بما يتمتع به من حكمة، والذي يعمل معه في ذات
الشركة.
قال بقلق:
"السلام عليكم عزيزي سماح، لقد وصلتني رسالة من العمل...
كلام مبهم عن تغييرات قادمة. لم أعد أفهم شيئاً".

ردّ سماح محاولاً التخفيف:
"لا تستبق الأحداث. ربما تكون مجرد إجراءات عابرة. تذكر ما
قلته لي مرّة: لكل أزمة باب خفي لا يُفتح إلا بالصبر".

أغلق الهاتف، لكنه لم يهدأ.
جلس أمام النافذة، وإذا بصوت التلفاز من شقة الجار يصل إليه؛
الجار كان يحدث زوجته بصوت عالٍ:
"لو استمر المطر، ستفسد البضاعة في المخزن! المطر نقمة هذا
العام".

ابتسم بمرارة، ثم سمع من بعيد ضحكات أطفال يركضون مع
أقرانهم تحت المطر في الحيّ الخلفي.

ترددت في ذهنه كل الأصوات:

. الأم التي رأت المطر خوفاً.

. الطفل الذي رآه لعباً.

. الفلاح الذي رآه رزقاً.

. التاجر الذي رآه خسارة.

. صديقه الذي حاول أن يزرع في قلبه الأمل.

رفع رأسه إلى السقف وقال في حوار داخلي موجّه لكل هؤلاء:
"المطر واحد... لكنكم جعلتموه وجوهاً مختلفة. فكيف سأجعل أنا
أزمتي؟ ظلاً أسود يبتلعني... أم نافذة أبصر منها نوراً آخر؟"

انبثاق الأزمة

جلس على الأريكة، العيون غلبها السهر لكن النوم يأبى أن يأتي. مدّ يده إلى جهاز التحكم وفتح التلفاز علّه يُشغل ذهنه عن الهواجس.

انطلقت نشرة الأخبار الليلية، والمذيع يقرأ بلهجة رسمية: "شهدت الأسواق اليوم اضطراباً ملحوظاً في قطاع الاستثمار، وقد أعلنت هيئة المال أن شركة (...) ذكر المذيع اسم الشركة التي يعمل فيها ... تواجه أزمة مالية خانقة دفعتها إلى تعليق بعض عقودها وإعادة النظر في هيكل موظفيها".

تجمّد مكانه، كأن الكلمات لم تُقال بل سقطت عليه كحجارة. ارتجف قلبه، وتدفقت إلى ذهنه الرسالة الإلكترونية من الإدارة: "قد يطرأ تعديل على أوضاع بعض الموظفين"...

الآن فهم المغزى.

لم تعد مجرد رسالة مبهمة، بل إنذار مُسبق.

أغلق التلفاز بارتباك، وظلّ يحدّق في انعكاس المطر على الزجاج.

أحسّ أن مطره الخاص بدأ يهطل الآن، لكن بأي وجه سيراه؟

الصراع الداخلي

لم يستطع أن يطفىء النور، ولم يعد المطر على النافذة صوتًا مطمئنًا، بل صار كأنه يطرق على جدران قلبه. جلس في منتصف الغرفة، يُقلب بين أوراق قديمة: شهادات خبرة، تقارير عمل، خطابات شكر، كلُّها تذكره بأنه لم يكن موظفًا عابرًا. مدّ يده إلى المرآة المعلقة في الصالة، تطلّع إلى وجهه طويلًا، كأنه يبحث عن جواب:

"هل أنا مجرد رقم في سجلات الشركة؟"

دار حوار داخلي متشظّ، وكأن أصوات النهار تعود لتطارده:

. صوت التاجر "ضاع رزقي بسبب المطر".

. صوت الفلاح "الحمد لله، جاء الغيث في أوانه".

. صوت الأم "المطر خوف".

. صوت الطفل "المطر لعب".

. صوت الصديق "لكل أزمة باب خفي".

ضغط على صدغيه بكلتا يديه وقال في نفسه:

"فإن جاء مطري أنا... بأي عين أنظر إليه؟ أهو لعنة، أم رسالة؟ خسارة، أم بداية؟"

أحسّ أن الأزمة لم تقع بعد، لكنها بدأت تُفتّت أعماقه من الداخل، كأن المعركة الأولى ليست مع الإدارة، بل مع مرآته.

إعداد السيرة الذاتية

جلس أمام مكتبه، أوراقه مبعثرة من حوله: شهادات جامعية، خطابات شكر، تقارير قديمة عليها توقيع المدير العام. أخذ يجمعها واحدة تلو الأخرى، وكأنه يلتقط أجزاء من ذاته المهددة بالضياع.

فتح حاسوبه، وبدأ يخطّ في ملف جديد: "السيرة الذاتية".
توقّف طويلاً عند السطر الأول: "الاسم، الخبرة، المهارات..."
كانت الكلمات جامدة، لكن خلفها قلب مضطرب.

حدّث نفسه:

"لعل كتاب إنهاء الخدمة يصل في أي لحظة... عليّ أن أكون جاهزاً. لا أريد أن أفاجأ بلا ملاذ. ربما أطرق أبواب شركات أخرى... ربما أبدأ من جديد".

ظل يكتب حتى ساعة متأخرة، لا يدري إن كان يُعدّ سيرة لمستقبل
أت، أم مراثية لماضٍ يتداعى.

استلام القرار

وقف سالم وصاحبه سماح في بهو الشركة، يحمل كل منهما ورقة
إنهاء الخدمة.

كان المكان مزدحمًا بالموظفين الخارجين بوجوه شاحبة، والأوراق
البيضاء في أيديهم أشبه ببطاقات خروج من عالم اعتادوه.

قال سماح بصوت متردد:
"انتهى الأمر... لم يعد لنا مكان هنا".
أوماً سالم برأسه، لكن داخله كان يضجّ بالأسئلة بَيْنَ المفَرِّ الآن؟

عرض الشقة

في أسبوعان من البحث عن عمل، اتصل سماح بسالم قائلاً:
"الإيجار صار يثقلني وحدي، وأنت أيضاً ستفقد شقتك إن طال بك
البحث. ما رأيك أن نسكن معاً؟ نقسم التكاليف، ونشدد أزر بعضنا
حتى نجد عملاً".

تأمل سالم قليلاً، ثم أجاب:
"فكرة صائبة. لعلنا نخفف الحمل عن بعضنا".
هكذا تحوّل الفقد المشترك إلى خطوة تضامن صغيرة.

عناء البحث عن عمل

الأيام تتابعت. خرج الاثنان كل صباح يحملان ملفات سيرهم
الذاتية.
في مكتب توظيف، استقبلهم موظف بوجه بارد: "سنتصل بكم
لاحقاً".
في شركة أخرى، كان الردّ: "نعتذر، لا شواغر حالياً".

عادا أكثر من مرة مثقلين بخيبات صامته، ثم جلسا في المقهى ذاته
الذي شهد أول لقاء لهما منذ ثلاث سنين.
قال سماح:
"لن نياس... لا بد أن نجد نافذة".
ابتسم سالم بتعب:
"أحياناً أشعر أن المطر ما زال يلاحقني، لكنني لم أبصر معناه
بعد".

سماح المدرس

في إحدى الأمسيات، عاد سماح مسرعاً إلى الشقة، يحمل ورقة بين
يديه، عينيه تلمعان بفرح صادق:
"وجدتُ عملاً! مدرسة خاصة قبلتني مدرساً للرياضيات... سأبشر
الأسبوع المقبل".
صافحه سالم بحرارة وقال:
"مبارك لك... تستحقها بحق".
لكن حين خلا إلى نفسه تلك الليلة، جلس قرب النافذة، ينظر إلى
المطر الذي عاد يتساقط، وهمس في داخله:
"وها أنا... ما زلت أنتظر مطري الخاص".

السفينة الورقية

في إحدى الليالي عاد سالم مساءً بخطوات مثقلة، المطر لا يزال ينساب في الشوارع، وقد تحوّلت الأرصفة إلى مجارٍ صغيرة للماء. كان يحمل ملفه تحت معطفه، كأنما يحمل ثقل أيامه المعلقة بلا جواب.

توقّف فجأة حين أبصر طفلاً عند زاوية الطريق، ينحني فوق جدول ماء صنعه المطر. في يده ورقة بيضاء مطوية على شكل سفينة صغيرة. وضعها برفق في المجرى، فانطلقت الورقة تبهر فوق التيار، تتمايل لكنها لا تغرق.

ضحك الطفل ببراعة وهو يركض بمحاذاة السفينة، يصيح كأنها حقاً مركبٌ في عرض البحر.

وقف سالم يحدّق، شعر أن المنظر البسيط يطرق داخله بشيء لم يفهمه لأول وهلة. ثم همس لنفسه:

"حتى ورقة هشة وجدت طريقها وسط الماء... فكيف أعجز أنا؟"

شعر لأول مرة منذ أسابيع أن المطر لم يكن عدوّاً، بل رسالة تُكتب له بلغة جديدة.

الإبصار عقل وقلب وحواس

دخل سالم الشقة وهو لا يزال مأخوذاً بمشهد السفينة الورقية. سأله صديقه:

"ما بك؟ كأن المطر أخذك إلى مكان آخر".

جلس سالم وقال:

"رأيت طفلاً يضع سفينة ورقية في مجرى المطر... رأيتها تبهر، تتمايل لكنها لم تغرق. كان يضحك ببراعة، أما أنا فقد وقفت مأخوذاً بها. حتى ورقة هشة وجدت مسارها وسط التيار... فكيف أعجز أنا؟"

تأمل الصديق وقال:

"هذا ما كنا نتحدث عنه من قبل: العين ترى المطر، لكن القلب هو الذي يمنحه المعنى. الطفل لم ير فيه خوفاً ولا خسارة، بل لعباً ورسالة. نحن الكبار نحجب بصيرتنا بالحسابات والخوف".

أطرق سالم برهة، ثم قال:

"كأن الله أرسل إليّ درساً بالحسّ قبل العقل. رأيت، وسمعت، وتذكرت ملمس القطرات حين كنت صغيراً... لكن هذه المرة لم يكن المطر ماءً فقط. صار رمزاً. السفينة لم تكن لعبة، بل جسراً لقيمة: أن الثبات لا يعني القوة الجامدة، بل المرونة التي تجري مع التيار ولا تنكسر".

ابتسم الصديق:

"هذا هو الفرق بين النظر والإبصار. النظر عين، أما الإبصار فهو عقل وقلب وحواس مجتمعة تقرأ الرسالة وراء الظاهر".

شعر سالم أن بذرة التحول بدأت تنبت فيه. لم يعد المطر مجرد حدث خارجي، بل أصبح أول معبر قيمي في رحلته الجديدة.

مقابلة مرفوضة

جلس سالم في مكتب أنيق بإحدى الشركات، يقدم سيرته الذاتية. الموظف يبتسم ابتسامة رسمية، يتفحص الأوراق سريعاً ثم يقول: "خبرتك جيّدة، لكننا نبحث عن شخص بخبرة أحدث... نشكرك على حضورك".

خرج سالم، المطر ينقر على الرصيف، وأحس أن كل قطرة تهمس: "مرفوض".

لكنه حين رأى شجرة قرب البوابة، أوراقها ترتجف تحت المطر لكنها لم تنكسر، خطر بباله:

"حتى الشجرة تثبت تحت الوابل... ربما الرفض ليس سقوطاً، بل تدريب على الثبات".

انعكاس الضوء

في طريق العودة، مرّ بجانب جدول ماء صغير تجمّع من المطر. انحنى قليلاً، فرأى وجهه ينعكس، ثم لمح فجأة انعكاس ضوء المصابيح يتلألأ فوق الماء.

تمتم:

"الماء لم يتغيّر... لكنه يعكس ما يُلقى عليه. ربما عليّ أن أتعلم كيف أعكس ما هو أسمى، لا أن أظل عاكساً لظلام همومي".

الشيخ المسن

في المقهى ذاته، جلس بجانبه رجل مسنّ لا يعرفه.
فتح الشيخ حديثه بعفوية:
"كنتُ في مثل عمرك، وفقدت عملي. ظننتها نهاية الطريق. لكني
بعدها فتحت ورشة صغيرة... واليوم هي ما أورثه لأولادي".
أصغى سالم بدهشة. أحسّ أن القصة غريبة في توقيتها، كأنها
امتداد لمشهد السفينة الورقية.
سأل نفسه:
"هل يضع الله في طريقي كل هذه الإشارات لأبصر، لا لأتدمّر؟"

التأطير الجديد

في الليل، تحدّث مع صديقه:
سالم: "اليوم رفضتني شركة، لكني حين خرجت رأيت شجرة
صامدة في المطر. قلت في نفسي: ربما الرفض ليس سقوطاً، بل
صقل".
سماح مبتسمًا: "ألم أقل لك؟ المعنى يتبدّل إذا غيّرت زاوية النظر.
أنت تعيد صياغة ما يحدث لك... هذه أولى خطوات الإبصار".
أحسّ سالم أن الخيوط تتجمّع: المطر، السفينة، الشجرة، انعكاس
الضوء، كلمة الشيخ. كلها حلقات في سلسلة واحدة.

اكتمال الرؤية

بعد أسابيع، وبينما كان يجلس قرب النافذة في ليلة ماطرة أخرى،
شعر أن قلبه صار أكثر صفاءً.
لم يعد المطر خصماً كما كان يوم فقد وظيفته، بل صار كتاباً
مفتوحاً:

. للطفل لعب.

. للأم خوف.

. للفلاح رزق.

. للتاجر خسارة.

. ولمن يُحسن الإبصار... رسالة.

ابتسم وقال لنفسه:

"النظر بداية... لكن الإبصار هو النهاية التي تفتح بدايات أخرى".

السوق الشعبي في عطلة نهاية الأسبوع

في صباح العطلة، اقترح سالم:

"لنبتعد قليلاً عن البحث والهموم... لنذهب إلى السوق الشعبي في
الحي، ربما نجد شيئاً ينعش نفوسنا".

سارا معاً بين الأزقة الضيقة التي امتلأت بالألوان:

. على اليمين بائع فواكه ينادي بأعلى صوته: "تفاح طازج...
برتقال للشفاء!"

. على اليسار امرأة عجوز تبيع حُلِيًّا نحاسية، تلمع تحت أشعة
الشمس.

. أطفال يركضون بين الطاولات، بعضهم يساعد أهله،
وبعضهم يلهو بصفارات ورقية.

توقف سالم أمام بائع طيور، أقفاصه مليئة بالعصافير.
قال بتأمل:

"انظر إليها... تصدح بأجمل الألحان، ومع ذلك هي محبوسة".
ابتسم سماح وقال:

"ويمكن أن تقول أيضًا: رغم القيد، ما زلت أغني"

مضيا قليلاً، فرأيا رجلاً يجلس على الأرض يصلح أحذية قديمة.
قال سالم:

"هل ترى؟ يلمّع حذاءً مهترئاً كأنه جديد. يذكرني أن الأشياء لا
تُرمى دائماً، بل يمكن إحيائها".

ردّ سماح:

"وأنا أرى رجلاً كاد عمله يندثر لكنه وجد لنفسه مكاناً هنا...
المطر واحد، والحذاء واحد، لكن المعاني تتعدد".

واصلوا السير، حتى مرّوا بطفل صغير يحمل صندوق مناديل
ورقية يبيعهها.

توقف سالم ونظر إليه طويلاً، ثم همس:

"كيف يسعى رزقه في هذا العمر؟"

أجابه سماح:

"لعل الله كتب له دروسًا في الكفاح قبل أوانه... أحيانًا يُزرع فينا ما لا نفهمه إلا بعد سنين".

في نهاية السوق جلس سالم وصديقه إلى طاولة خشبية قديمة في زاوية المقهى، أمامهما أكواب شاي بالنعناع تفوح رائحته الزكية. أصوات السوق لا تزال تتردد من الخارج: مناداة الباعة، صياح الأطفال، وقع الأقدام.

بدأ سالم الحديث وهو يحدّق في بخار الشاي: "كأن السوق كله كان لوحة تفيض بالرموز. الطيور في الأقفاص، الأحذية التي صارت جديدة بعد أن بهتت، والطفل الذي يبيع المناديل... كلها صور، لكنها تسألني: بأي عين تراها؟"

أجابه الصديق:

"أجل... أنا رأيت الطيور تغني رغم قيودها، وأنت رأيتها سجينًا. رأيت الإسكافي يصارع لينجو، وأنت رأيته يُحيي ما يُرمى. رأيت الطفل بائع المناديل مرغمًا على الشقاء، وربما تراه أنت صورة للكفاح المبكر. المعنى لا يسكن الأشياء، بل نحن الذين نحمله لها".

تأمّل سالم ثم قال:

"هذا ما حيّرني منذ المطر الأول... نفس المشهد يلد معاني متناقضة. أحيانًا أخشى أنني عالق عند حدود النظر، لا أصل إلى عمق الإبصار".

ابتسم الصديق:

"النظر بداية لا مفر منه، لكن البصيرة تحتاج إلى قلب يتأمل وعقل يُعيد التأويل. لعل الله يضعنا في هذه المشاهد لتتعلم كيف نعبر منها، لا كيف نتوقف عند سطحها".

سكت الاثنان لحظة، يراقبان بخار الشاي وهو يتصاعد ثم يختفي في الهواء.

قال سالم بصوت خافت:

"كالبخار هذا... إن اكتفيت بالنظر، رأيته شيئاً يزول. لكن إن أبصرته، صار لي دلالة: أن ما يختفي أمامي ربما لا يفنى، بل يتحول".

ابتسم الصديق وأجاب:

"أحسنْتَ... ها أنت تقترب من الإبصار".

شجار في السوق

خرج سالم وصديقه من المقهى، والشمس بدأت تميل نحو الغروب. لم يبتعدا كثيراً حتى تناهى إلى سمعهما صياح مرتفع. اقتربا، فإذا برجلين يتشاجران عند بسطة للخضار.

الأول، بائع بطيخ، صاح غاضباً:

"لقد أخذت مكاني الذي أبيع فيه منذ سنوات!"

الثاني، بائع طماطم، يردّ بحدة:
"المكان ملك للبلدية، وليس حكرًا عليك! كلنا نبحث عن رزق".
اجتمع الناس، بعضهم يحاول التهدة، وبعضهم يكتفي بالتفرج.
اقتربت امرأة مسنة وقالت بصوت حازم:
"اتقوا الله، الرزق مقسوم. كلُّ منكما سيبيع ما كُتب له، سواء هنا أو هناك".

ساد صمت قصير، ثم تراجع البائعان، كلُّ إلى جهته، بينما أخذ الناس يتفرقون.

وقف سالم يتأمل المشهد، وقال لصديقه:
"المكان واحد... لكنهما رأياه ساحة صراع. والمرأة رأته ساحة
قسمة وعدل. أليس هذا المطر نفسه يتكرر في صور أخرى؟"
أجابه الصديق:

"بلى... المشهد ذاته يوّلّد نظرات مختلفة: خصومة أو قسمة، تهديد
أو طمأنينة. المسألة في العيون التي ترى، لا في المكان نفسه".

تنفّس سالم بعمق، وهو يشعر أن الخيط الذي بدأ بالسفينة الورقية ما
زال يتمدّد أمامه، من المطر إلى السوق إلى الشجار. كل موقف
يتحوّل إلى مرآة جديدة لعينه الداخلية.

وفجأة، ظهرت عربة خشبية يجرّها شاب يافع، محمّلة بصناديق
الخضار. وبينما كان يحاول تجاوز الزحام، تعثّرت العربة بحجر
وانقلب أحد صناديقها، فتدحرجت الطماطم والبادنجان على
الأرض.

توقف الجمع بدهشة، وصارت الأقدام تتزاحم فوق الثمار المتناثرة. وفي لحظة صمت قصيرة، انحنى البائعان المتخاصمان معًا، كلُّ منهما يمدّ يده ليلتقط ما سقط. لم يقل أحدهما للآخر شيئًا، لكن حركة الجسد سبقت اللسان: كلاهما يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من العربة. وبعد أن أُعيد الصندوق إلى مكانه، تبادلا نظرة خاطفة، ثم تنحّى كل واحد إلى بسطة مختلفة.

همس سالم لصديقه وهو يراقب المشهد: "أترى؟ لم يُصلحهما الكلام ولا صياح الناس، لكن سقوط الصندوق أجبرهما على أن يتعاونوا ولو للحظة. المشهد نفسه تحوّل: من خصومة إلى مساعدة".

ابتسم الصديق وقال: "هكذا هي الحياة... أحيانًا لا تكسر عنادنا المواعظ، بل المواقف. النظرة الأولى تقول خصام، لكن الإبصار يقول إن وراءه قدرة على اللقاء".

إشارة لم يُلقي لها بال

في إحدى الأمسيات، جلس سالم في المقهى الشعبي القريب من الشقة، يتصفح جريدة ورقية تركها أحد الزبائن على الطاولة.

كان ذهنه مشغولاً بالبحث عن عمل، لكنه قلب الصفحات بكسل حتى وقعت عيناه على خبر صغير في زاوية الصفحة:

"المؤسسة العالمية لا اعتماد القيم تعلن عن توسّع برامجها التدريبية في المنطقة، وتركّز على منح شهادات اعتماد للمدارس والمؤسسات التعليمية".

قرأ السطر مرة واحدة، ثم طوى الصفحة بلا اهتمام كبير.
قال في نفسه:

"أخبار بعيدة لا تعنيني الآن... أنا أبحث عن لقمة عيش، لا عن اعتمادات عالمية".

ترك الجريدة جانباً وارتشف كأس الشاي.

اجتماع المدرسة

في قاعة متوسطة، جلس سماح مع المعلمين حول طاولة مستطيلة.
على رأس الطاولة جلس المدير، ملامحه متوترة وهو يقلّب بعض الأوراق.

قال بصوت واضح:

"الوضع لا يُطمئن... أعداد الطلبة ستتراجع في العام المقبل.
المنافسة تزداد، وإن لم نجد حلاً، فسنضطر إلى إنهاء عقود بعض المدرسين".

ساد صمت ثقيل، تبادل الجميع النظرات.

رفع سماح يده وقال:

"سيدي المدير، قد يكون أماننا خيار مختلف... ماذا لو سعينا للحصول على شهادة اعتماد القيم من المؤسسة العالمية؟ هذه الشهادة ستمنح مدرستنا تميّزاً حقيقياً، وستجذب أولياء الأمور الذين يبحثون عن تعليم ذي جودة ورسالة".

تأمل المدير قليلاً، ثم قال:

"فكرة جميلة، لكن من يتولى ذلك؟ نحن مثقلون أصلاً بالمهام".

ابتسم سماح وأجاب:

"المؤسسة العالمية لاعتماد القيم تقدّم تدريباً للمدربين. يمكن أن نرشح شخصاً من خارج المدرسة، يتلقى التدريب عندهم، ثم يتكفل بتدريبننا نحن. هكذا نحصل على الشهادة بتكلفة معقولة، ونستفيد جميعاً".

تحرك همس بين المعلمين. بعضهم أبدى إعجاباً:

"هذا سيجعلنا مختلفين عن بقية المدارس".

آخرون قالوا:

"إذا اعتمدنا، سيزداد الإقبال من أولياء الأمور فعلاً".

قال المدير بعد لحظة تردد:

"إن كان الأمر ممكناً مالياً، فأنا لا أمانع. سأنتظر مقترحاً رسمياً".

الفرصة

بعد الاجتماع، اتصل سماح بصديقه سالم، وقال له بحماس:
"سالم، وجدت لك بابًا. المدرسة بحاجة إلى تميّز كي تنجو من
المنافسة. اقترحت عليهم شهادة اعتماد القيم من المؤسسة العالمية.
الفكرة لاقت قبولاً".

سكت سالم بدهشة:
"لكن من سيدرب؟"

ردّ سماح:
"أنت. ستتواصل بالمؤسسة العالمية لاعتماد القيم، تلتحق
ببرنامجهم، لتتلقى التدريب عندهم، ثم تصبح أنت المدرّب المعتمد
للمدرسة. والمدرسة تتعاقد على ضوء ذلك مع المؤسسة، وأنت
المستفيد الذي يقدّم التدريب هنا. وبهذا تربح المدرسة اعتمادًا،
وتربح أنت عملاً جديدًا".

شعر سالم أن قلبه يخفق بسرعة. كأن المطر الذي لاحقه طويلاً قد
بدأ يتجمّع في جدول واحد.
تمتم:

"كأن الأزمة نفسها قادتني إلى هذا الباب... لم أكن لأفكر به لولا
تلك الرسالة التي قلبت حياتي".

أول اتصال بالمؤسسة العالمية

جلس سالم في غرفته، يتردد قبل أن يرفع الهاتف.
"هل أنا مستعد؟ هل يقبلون بي؟"
لكنه تذكر كلمات سماح "ليست مجرد وظيفة، بل باب جديد".
ضغط على الرقم، فجاءه صوت موظف الاستقبال:
"مرحبًا بكم في المؤسسة العالمية لاعتماد القيم".
كان الصوت هادئًا، يحمل نبرة ثقة. شعر سالم أن الطمأنينة تتسرب
عبر الأثير.
قال مترددًا:
"أنا... اسمي سالم. أريد باللقاء بمدير عام المؤسسة لعرض
فرصة تعاقد مع إحدى المدارس"
نقل طلبه لسكرتير المدير العام، وتم تحدد الموعد صباح بعد غد
في تمام الساعة الحادية عشرة، لمدة لا تتجاوز عشرون دقيقة،
لانشغالات المدير العام في تحضيراته للسفر.

الانتظار قبل الدخول

جلس سالم في قاعة الانتظار بمقر المؤسسة العالمية لاعتماد القيم.
كان ينظر إلى اللوحات على الجدران، شعارات عن "الاعتماد
القيمي" و"التعليم بالمعنى"، بينما كفه يتصبب عرقًا من التوتر.

قال في نفسه:
"أنا لست موظفًا بعد... لكن عليّ أن أبصرها كفرصة، لا كحاجز".
فتح حقيبته الجلدية، تأكد من وجود نسخة من سيرته الذاتية، وكتب
بخط يده سطرًا في دفتره:
"عرّف نفسك بصدق، ثم عرّف الفرصة بوضوح".

نادته السكرتيرة:
"تفضل يا أستاذ سالم، المدير العام بانتظارك".
دخل سالم المكتب بخطوات ثابتة، حيّا المدير العام وقال:
"اسمي سالم، خبرتي السابقة كانت في إدارة شؤون الموظفين،
وهذا منحني خبرة في تنظيم الموارد المالية والبشرية. لكن ما جئت
به اليوم ليس طلب عمل، بل فرصة".

رفع المدير حاجبه باهتمام:
"فرصة؟ أي نوع من الفرص؟"

جلس سالم وقال بثقة:
"هناك مدرسة تمر بأزمة تنافسية حادة. مديرها يبحث عن حل يُعيد
ثقة أولياء الأمور. زميلي سماح اقترح اعتماد برنامجكم القيمي
كحل استراتيجي، وأنا جئت لأعرض أن أكون جسرًا بينكم وبين
المدرسة".

قال المدير العام وهو يتكئ إلى الخلف:
"لكن تدريبك على برنامجنا يتطلب رسومًا غير قليلة، فمن
سيتحملها؟"

ابتسم سالم وقال:

"هنا تكمن الفكرة. لو تولت مؤسستكم تدريب شخص واحد – هو أنا – مجاناً، ستكسبون اعتماد مدرسة كاملة. بل أكثر من ذلك، سأقترح على المدرسة إدراج شرط خصم خاص من رسوم الاعتماد، باعتبار أنني أنا من جلب الفرصة. بهذا، تربح المؤسسة سمعة وشراكة، وتربح المدرسة تكلفة أقل، وأربح أنا خبرة ومعرفة أنقلها لهم تحت اسمكم".

أمسك المدير قلمه، وقال متفحصاً:

"تريد أن تُقنعني أن أستثمر فيك... وأن أجعل المدرسة تدفع أقل مما ندفع عادة؟"

أجاب سالم بصدق وهدوء:

"نعم. لكن فكر في العائد: أنتم لا تبيعون خدمة، بل قيمة. وإذا رأى السوق أنكم تتحملون تدريب الكفاءات، وتقدمون خصومات استراتيجية، فستزداد ثقة المدارس الأخرى بكم. إنها ليست خسارة مالية، بل مكسب قيمى واستثمارى".

ساد صمت قصير، ثم قال المدير العام بابتسامة صغيرة:

"يعجبني أنك لم تدخل باحثاً عن وظيفة، بل جئت صانعاً لفرصة. حسناً... سنجرب".

شرح له على ضوء ذلك تفاصيل البرنامج، وكيف أن المدرسة ستستفيد من اعتماد عالمي يجذب لها أولياء الأمور بإذن الله. ثم قال المدير جملة قصيرة علقت في ذهنه:

"نحن لا نمنح شهادات فقط، نحن نمنحك لغة جديدة لطلاب المدرسة".

علقت في ذهن سالم العبارة، وبقي صامتًا. تمتم لنفسه:
"لغة جديدة... ربما هذا ما كنت أبحث عنه".

في المساء، جلس مع سماح يتبادلان الأفكار.
سالم: "المؤسسة قالت إن التدريب سيجعل المدرسة كالمغناطيس،
يجذب الطلاب".

سماح مبتسمًا: "ألم تلاحظ؟ المطر لم يجرك للأسفل، بل دفعك
لتصنع سفينة ورقية... والآن المغناطيس سيجذبك إلى مسار
مختلف".

سالم: "وكان كل ما حدث لم يكن خسارة، بل إعادة تأطير... لم
أفقد عملي، بل كنت أتهيا لدور آخر".

إدراك الشرط الخفي

جلس سالم مع صديقه سماح في الشقة بعد الاتصال بالمؤسسة. كان
المطر هذه المرة خفيفًا، يتساقط كأنه موسيقى على النوافذ.
قال سالم وهو يحدّق في القطرات:

"تعرف يا سماح... كنت أظن أن فقدان الوظيفة هو انكساري. لكنني
أرى الآن أنه كان شرطًا. لو بقيت في عملي القديم، لما التفتُّ إلى
هذا الطريق، ولا كنتُ سأدخل عالم القيم".

ابتسم سماح وقال:
"هذا ما يسمونه حكمة الأزمات. السقوط الذي يظنه المرء نهاية قد
يكون هو ما يدفعه ليقف في مكانٍ أعلى".

سكت سالم لحظة ثم أضاف:
"كأنها كانت إعادة توزيع للأدوار. المطر نفسه الذي رأيته نقمة،
صار الآن رحمة... لقد جرّدني من موقعي القديم لأبصر موقعًا
أوسع".

رفع سماح يده مشيرًا إلى ملف السيرة الذاتية الذي ما زال على
الطاولة:

"السيرة التي كنت تكتبها لتبحث عن وظيفة جديدة... ربما لم تكن
مجرد أوراق، بل مرآة لتعيد النظر في نفسك. واليوم... ستكتب
سيرة أخرى، ليس للوظائف، بل للرسالة".

أحسّ سالم بقشعريرة تسري في جسده. لأول مرة منذ خروجه من
الشركة، لم يرَ نفسه ضحية، بل طرفًا في حلٍّ أكبر يتجاوز شخصه.

اللقاء التعريفي بالمؤسسة

في اليوم التالي، دخل سالم قاعة الاجتماعات بالمؤسسة العالمية،
جدرانها مزدانة بلوحات تحمل كلمات مثل "العدل" "الأمانة"
"المسؤولية".

جلس المدير أمامه، فتح ملفاً يحمل عنوان " منهج الاعتماد القيمي للمدارس."

قال المدير وهو يبتسم:
"قبل أن تبدأ معنا يا سالم، لا بد أن تفهم أن غرس القيم ليس عملية مباشرة، لا أحد يقول للطفل: كن أميناً، فيصبح أميناً. نحن نتبع نهجاً طبقياً".

سأل سالم باهتمام:
"ماذا تقصدون بالنهج الطبقي؟"

أجاب المدير:
"يعني أننا نبرمج القيمة في الدماغ والسلوك والقلب عبر عشرين طبقة برمجية متكاملة. كل طبقة تعمل بأسلوب مختلف، لتترسخ القيمة تدريجياً في وجدان الطالب".

انحنى سالم إلى الأمام وقال:
"وهل هذا مرتبط بمادة التربية وحدها؟"

هز المدير رأسه:
"لا. كافة المواد الدراسية معنية. الرياضيات، العلوم، اللغة... كل معلم يصبح جزءاً من عملية الغرس. فالقيم لا تزرع في حصص منفصلة، بل في نسيج التعليم كله".

تصفح سالم الملف، فتوقّف عند صفحة تعرض أمثلة:
طبقة استثارة الحواس: ربط الطالب بالصور، الأصوات، الروائح

والملاص التي تذكره بالقيمة.

طبقة توجيه القيمة عبر فصلي الدماغ: موازنة بين العقل التحليلي والإبداعي.

طبقة القصة: تدليل القيمة عبر حكايات تجعلها قابلة للعيش لا مجرد شعارات.

طبقات أخرى تكمل البناء حتى يترسخ الغرس.

رفع سالم رأسه وقال بإعجاب:

"إذن أنتم لا تعلمون القيم... أنتم تبرمجونها عبر طبقات متعددة".

ابتسم المدير وأكمل:

"ولذلك، نحن لا نعتمد مدرسة قبل أن نجري ثلاثة مسوح ميدانية على الطلاب:

. مسح قبلي قبل بدء البرنامج، لنتعرف على المستوى الحالي للطلبة حيال القيم قبل بدء عمليات البرمجة.

. مسح بعد شهر، لقياس ما أدركه الطلبة وفق مستويات ثلاث، نسبة تشرب المعلومة، ونسبة التغير في موقف الطالب حيال القيمة محل الغرس، ونسبة التغير في السلوك.

. ومسح بعد شهرين. كي نرفع على ضوء ذلك تقريراً للمدرسة عن المستوى الذي آلت إليه معززين ذلك بالشهادة التي تستحقها بناء على ذلك.

فنحن نقيس مدى تشرب القيمة وامتثال الطلاب لها، ونرصد كيف استوفت المواد الدراسية حقها في الغرس".

أغلق المدير الملف وأردف:
"إذا فهمت هذا، عرفت أن مهمتك ليست تدريبيًا عابرًا، بل مشاركة
في صناعة جيل كامل".

شعر سالم أن قلبه يخفق بقوة، وقال في نفسه:
"ها أنا أرى الطريق... لم يكن فقدان وظيفتي إلا شرطًا ليفتح لي
هذا الباب".

مشهد التعاقد

بعد اسبوعان مفعمان بالتدريب، دخل سالم مكتب ناظر المدرسة
يحمل ملفًا مختومًا بشعار المؤسسة العالمية لاعتماد القيم.
وقف لحظة قبل أن يجلس وقال بثقة هادئة:
"أنا هنا ممثلًا عن المؤسسة العالمية لاعتماد القيم، جئت لأعرض
عليكم صيغة التعاقد التي تمهد لبدء برنامج الاعتماد القيمي".
أشار ناظر المدرسة له بالجلوس، وأخذ منه الملف، يقلب صفحاته
بتأنٍ.

قال سالم وهو يشرح:
"الاتفاق يتضمن بنودًا أساسية:

- سأكون المدرب المباشر لمعلميكم.
- التزام المدرسة بإشراك جميع معلميها في البرنامج التدريبي،
بحيث تُدمج القيم في المناهج كافة.

. خصم خاص على رسوم الاعتماد النهائي تقديرًا للشراكة المبكرة.

. تنفيذ ثلاثة مسوح ميدانية للطلاب: قبل البرنامج، وبعد شهر، ثم بعد شهرين، لقياس مدى الامتثال القيمي".

أغلق الناظر الملف قليلاً وقال:
"البنود واضحة... لكن هل تضمن أن المؤسسة تلتزم بجودة التدريب كما تعد؟"

ابتسم سالم وأجاب بثبات:
"التدريب المكثف يخضع له كافة ممثلي المؤسسة العالمية قبل أن يباشروا بعمليات التدريب في المدارس، وبذلك تضمنون أن من يتولى تدريب معلمكم هو شخص مطلع على تفاصيل البرنامج من الداخل. المؤسسة تراهن على نجاحكم لأن نجاحكم سيكون نموذجًا لها في المنطقة".

أوماً الناظر برأسه، ثم أخذ القلم ووقع في أسفل الصفحة.
دفع بالأوراق إلى سالم قائلاً:
"إذن لنبدأ... أنت الآن ممثل المؤسسة لدينا. ولعلنا نبدأ خلال أسبوع من الآن محددين معكم موعد انطلاق البرنامج التدريبي".
أخذ سالم الملف الموقع بعناية، شعر بثقل اللحظة.
همس في نفسه وهو يغلقه:
"ما بين هذه البنود المطبوعة، تختبئ رسالة أبصرها منذ البداية:
القيم ليست شعاراً... بل عقد يربط العقول والقلوب".

سالم المدّرب

بعد التدريب المكثف الذي تعرض إليه سالم في المؤسسة العالمية لاعتماد القيم، ومع انقضاء الأسبوع الأول من توقيع العقد بدأت مرحلة تدريب المعلمين.

جلس المعلمون في قاعة المدرسة، أمامهم دفاتر وأقلام. كان بينهم معلم لغة عربية، وآخر للرياضيات، وآخر للفيزياء. وقف سالم أمامهم، وعينه تتحركان بين الوجوه ثم بدأ وقال: "اسمحوا لي أن أسألكم... ماذا يحدث إن علّمنا الطلاب المناهج كما هي، دون أن نكشف لهم قيمها؟"

ساد صمت قصير.

ثم أجاب بنفسه:

"سيخرج الطالب حافظًا للقوانين، عارفًا بالمعادلات، لكنه قد لا يعرف لماذا عليه أن يكون صادقًا في تجربته، أو مسؤولًا في حساباته، أو متعاونًا في مشروعه".

رفع ملفه وأشار إلى إحدى صفحاته:

"هذا ما نسميه مسار الإبصار القيمي. أن نعلّم المناهج بعيون جديدة: لا نكتفي بالنظر إلى المعلومات، بل نبصر الرسالة التي تحملها.

. فدرس الفيزياء ليس حركة وقانونًا فقط، بل هو معبر إلى المسؤولية.

. ودرس العلوم ليس أجهزة وأعضاء، بل نافذة على الصدق
والحكمة والإتقان.

. والنادي العلمي ليس نشاطًا إضافيًا، بل مختبر لغرس
المسؤولية الجماعية".

ثم استأنف وقال بابتسامة:

"حين تنتظرون إلى دروسكم سترون كتبًا ومعادلات، لكن حين
تبصرونها ستجدون أن كل مادة تحمل لكم رسالة قيمية. والفرق
بينهما هو الذي يصنع الإنسان المتوازن".

وأردف:

"القيم لا تُغرس بالموعة المباشرة، بل عبر طبقات. عشرون
طبقة تجعل القيمة جزءًا من الوجدان فالسلوك. أنتم جميعًا معنيون،
كلٌّ من خلال مادته".

رفع معلم الفيزياء يده وقال بجدية:

"لكن يا أستاذ سالم... أنا أدرس قوانين نيوتن والحركة. كيف
يمكنني أن أغرس قيمة مثل المسؤولية من خلال مادتي؟"

ابتسم سالم، وأخذ نفسًا عميقًا.

"سؤال رائع... هنا نحتاج أن نُبصر، لا أن ننظر فقط".

اقترب من الطاولة ورسم دائرة على السبورة:

"المسؤولية طبقة لا تُبنى بكلمة واحدة. في الفيزياء مثلاً:

. يمكن أن تستثير حواس الطالب حين تجعله يلاحظ أثر الإهمال في التجربة: قطرة ماء زائدة تغيّر النتيجة. هذه طبقة استثارة الحواس.

. ثم تجعله يوازن بين التفكير المنطقي والخيال في تحليل النتائج: هذه طبقة فصّي الدماغ، حيث يتعلم أن المسؤولية تقتضي عقلًا متزنًا.

. ثم يمكن أن تروي لهم قصة عالمٍ أهمل خطوة بسيطة، فضاع عمله، بينما آخر التزم بأدق التفاصيل فغيّر التاريخ. هذه طبقة القصة".

رفع عينيه إلى المعلمين وقال:
"المسؤولية هنا لم تُزرع عبر شعار، بل عبر تجربة محسوسة، وتحليل عقلي، وحكاية حية. هذا هو النهج الطبقي: نُمرّر القيمة عبر قنوات متعددة حتى تُبصر في قلب الطالب لا في أذنه فقط".

ساد صمت قصير، ثم قال معلم اللغة العربية بإعجاب:
"إذن حتى دروس النحو يمكن أن تُصبح معبرًا لغرس قيمة، لو أحسنّا النظر إليها".

ابتسم سالم وقال:
"أجل... النظر يعطيك ظاهر المادة، أما الإبصار فيكشف لك كيف تتحول المادة نفسها إلى جسر للقيمة".

بعد أن انتهى الحوار مع معلم الفيزياء، رفع معلم العلوم يده وقال:
"أستاذ سالم... إذا كان بالإمكان ربط المسؤولية بالفيزياء، فكيف

يمكنني أن أربط قيمة عظيمة مثل الصدق بمادتي؟ نحن نتحدث عن التجارب والحقائق العلمية... أين موقع الصدق هنا؟"

ابتسم سالم وقال:

"سؤالك يمسّ لبّ الفكرة. الصدق ليس كلمة تُقال، بل هو التزام بالواقع كما هو. وفي العلوم، أنتم أقرب الناس إلى هذه القيمة. لنفكر عبر الطبقات:

. حين يدخل الطالب مختبر العلوم، كل تجربة تبدأ بملاحظة دقيقة. استثارة الحواس هنا هي أول مدخل للصدق: أن ترى وتسمع وتشاهد بعين يقظة، لا بما تتوهمه.

. ثم يأتي التحليل العقلي. الطالب قد يُغريه أن يغيّر رقمًا أو يُزوّر نتيجة لتمرّ التجربة كما يريد. هنا نُفعل طبقة فصّي الدماغ: أن يتعلم أن العلم لا يرحم الكذب، وأن التوازن بين التحليل والتجريب يقوم على صدق الملاحظة.

. ثم نأتي إلى طبقة القصة: نحكي لهم مثلاً قصة "مندليف" الذي صدق مع نفسه في ترتيب العناصر رغم أن بعض الخانات كانت فارغة بلا تفسير. لم يزور، لم يتلاعب، بل صدق مع الواقع... فجاء الزمن ليملاً تلك الخانات لاحقاً. هكذا صار الصدق أصل اكتشاف.

ثم نظر سالم إلى المعلمين وقال:

"أرأيتم؟ مادة العلوم ليست فقط معادلات وتجارب. هي معمل

للصدق، لأن كل تزوير أو إهمال يفضح نفسه. الطالب إذا أدرك ذلك بعينه وعقله وقلبه، صار الصدق جزءاً من وعيه".

ساد صمت قصير، ثم علّق أحد المعلمين:
"إذن الصدق ليس قيمة خُلقية منفصلة عن العلم... بل هو روح العلم نفسه".

ابتسم سالم، وأردف:
"وهذا هو الفرق بين النظر والإبصار: النظر يرى التجربة أداة، أما الإبصار فيكشفها معبراً للقيمة".

رفع معلم العلوم يده مرة أخرى وقال:
"أستاذ سالم، ذكرتَ قبل قليل قيمة الصدق في التجارب. لكن ماذا عن دروس مثل النظام البيئي أو جسم الإنسان؟ كيف نغرس القيم هناك؟"

ابتسم سالم وقال:
"هذه فرصة عظيمة. هنا يمكن أن نستثمر طبقة الحكمة والإتقان. عندما تشرحون للطلاب التوازن الدقيق في النظام البيئي، أو تعقيد أجهزة جسم الإنسان، فأنتم لا تشرحون علماً فقط. أنتم تكشفون لهم أن هذا الإتقان في الخلق ليس صدفة، بل حكمة عليا. حين يُبصر الطالب ذلك، يُزرع في قلبه تقدير للعلم مقرون بعمق قيمى: أن المعرفة طريق لفهم الحكمة، لا لفصلها عن الروح".

تدخل معلم آخر وقال:
"وماذا عن الأنشطة؟ هل تبقى الفكرة مجرد شرح؟"

أجاب سالم وهو يفتح ملفًا فيه صور لأنشطة مدرسية:
"هنا نستخدم طبقة نوادي القيم. مثلًا، يمكن إنشاء نادي الطاقة
المتجددة. الطلاب فيه يصنعون توربينًا صغيرًا، أو يجمعون خلايا
شمسية لتوليد الكهرباء.

في هذه اللحظة، القيمة لا تُغرس عبر التلقين، بل عبر التجربة
الجماعية. الطالب يتعلم أن الحكمة ليست في الكتب فقط، بل في
تحويل الفكرة إلى عمل، والقيمة إلى منتج، وأن الإتقان مسؤولية
مشتركة".

ثم أضاف:

"القيمة هنا لا تُغرس بالدرس وحده، بل بالدرس + النشاط +
النادي. ثلاث طبقات متكاملة تجعل الطالب يبصر أن العلم نفسه
رسالة قيمة".

ساد صمت قصير، ثم قال ناظر المدرسة الذي كان يتابع الجلسة:
"الآن أفهم... هذا ليس تدريبًا تقليديًا. أنتم تبنون جسورًا بين المادة
العلمية والقيم الإنسانية".

ابتسم سالم وأجاب:

"تمامًا... هذا هو كيف تبصر. النظر يرى مادة علمية، أما الإبصار
فيراهها حكمة وإتقانًا ومسؤولية".

تجربة نادي الطاقة المتجددة

بعد أسابيع من تدريب المعلمين، قرّروا أن يطلقوا أول نشاط عملي في المدرسة: نادي الطاقة المتجددة. اصطفّ الطلاب في ساحة صغيرة، وعلى الطاولة أدوات بسيطة: زجاجات بلاستيكية، شفرات مروحة صغيرة، أسلاك، ولوح شمسي صغير.

وقف معلم العلوم يشرح لهم: "اليوم سنتعلم كيف نصنع توربينًا صغيرًا يولّد الكهرباء. ليس الهدف أن نصنع محطة عملاقة، بل أن نكتشف كيف يمكن لفكرة صغيرة أن تتحول إلى طاقة حقيقية". بدأ الطلاب بالعمل جماعات:

. فريق يركّب شفرات المروحة.

. فريق يوصل الأسلاك.

. فريق يثبت اللوح الشمسي.

ضحكاتهم تختلط بصوت احتكاك الأدوات. أحد الطلاب صرخ فجأة:

"اشتغلت! المروحة تدور!"

صقّ الجميع بحماس.

اقترب سالم الذي كان يراقب من بعيد، وقال للطلاب: "هل رأيتم؟ لم يكن الأمر لعبًا فقط. هذه تجربة تغرس فيكم قيمة. أنتم تعلّمتم اليوم أن التعاون يولّد طاقة، وأن الإتقان في التفاصيل

يصنع النتيجة، وأن العلم يمكن أن يكون جسراً لـ المسؤولية تجاه البيئة".

رفع أحد الطلاب يده وقال ببراءة:
"كأننا نبصر العالم بطريقة جديدة... حتى المروحة الصغيرة
صارت درساً في القيم".

ابتسم سالم، وهمس في نفسه:
"ها هو الطريق... النظر يرى أدوات بسيطة، أما الإبصار فيراها
رسائل للحياة".

نتائج المسح الثالث والاجتماع الثلاثي

في مقرّ المؤسسة العالمية لاعتماد القيم، جلس المدير العام خلف
مكتبه الفخم، يتفحص أوراق التقرير الميداني الثالث للمدرسة.
رفع حاجبيه بدهشة وقال بصوت خافت:
"غير معقول... هذا التغير السلوكي في وقت قصير؟!"
التقط الهاتف واتصل مباشرة بسكرتيره:
"نحتاج إلى اجتماع عاجل مع مدير المدرسة... غداً في مقرّ
المؤسسة. وليكن سالم حاضراً".

في اليوم التالي، دخل سالم مع مدير المدرسة إلى قاعة الاجتماعات. كان قلبه يخفق بقوة، يشعر أنه يقف على عتبة مصير جديد. جلسوا حول الطاولة المستديرة، وفتح المدير العام الملف أمامهم.

قال بنبرة جادة:

"لقد راجعنا نتائج المسح الثالث... الأرقام تتحدث. معدّل الامتثال للقيم ارتفع بنسبة غير مسبوقة، والتغيير بدأ واضحًا في طلابكم. ما حققتموه لا يدخل ضمن النتائج الاعتيادية لبرامجنا".

نظر إلى سالم مباشرة:

"أريد أن أعرف... ماذا فعلت بالضبط؟"

شعر سالم أن أنفاسه تتسارع. تذكر المطر الأول، والسفينة الورقية، وشجار السوق، ونادي القيم، وتدريب المعلمين. كلها مرت أمامه كخيوط نسجت النتيجة.

قال بصوت متردد أولاً ثم أكثر ثباتًا:

"لم أقدم دروسًا نظرية فقط... حاولت أن أجعل المعلمين يُبصرن قبل أن أُدرّس. رأيت أن القيمة لا تُغرس بالقول، بل تُبنى طبقة فوق طبقة: من الحواس إلى العقل، من القصة إلى النشاط، من الصف إلى النادي. هذا ما جعل الطلاب يعيشون القيم، لا يسمعون عنها فقط".

ساد صمت ثقيل، والعيون متجهة إلى المدير العام، في انتظار قراره.

أما قلب سالم، فكاد ينخلع وهو يترقب الكلمة التالية.

رسالة الكترونية

في مكتبه الهادئ، جلس المدير العام للمؤسسة العالمية لاعتماد القيم يتأمل نتائج المسح الثالث. كان لا يزال مأخوذاً بالطفرة التي حققها سالم، حين دخل عليه أحد موظفيه يحمل ملف البريد الإلكتروني المطبوع. مدّه إليه قائلاً:

"وصلتك رسالة عاجلة من المدير الإقليمي".

فتح المدير العام الورقة، قرأ السطر الأول، فتسارعت أنفاسه: "ستعدّ للانتقال إلى القاهرة خلال الأشهر المقبلة. هناك خطة لتوسيع نطاق المؤسسة ليشمل شمال إفريقيا، ونحتاج إلى خبرة إدارية ميدانية بحجم خبرتك الطويلة".

أسند الورقة على المكتب، وأحس أن قلبه مثقل بمزيج غريب من المشاعر:

. بهجة عارمة: هذا ارتقاء للمؤسسة إلى مستوى أوسع، وحلم طالما انتظره.

. قلق عميق: من سيخلفه هنا؟ من يستطيع أن يحمل الشعلة بنفس القوة والصدق؟

نهض من مقعده وسار نحو النافذة. نظر إلى الأفق وهو يتمتم: "الارتقاء يعني أن أترك مكاني لغيري... لكن هل ثمة من أبصر الطريق حقاً ليُكمل المسيرة؟"

تردد اسم واحد في ذهنه بسالم.
لكن كيف يسلم زمام مؤسسة دولية إلى رجل لم يمض سوى أشهر
قليلة بينهم؟

بقي واقفاً أمام الزجاج، بينما المطر بدأ ينقر بخفة على النافذة.
لم يكن المطر هذه المرة يحدث سالم فقط... بل يحدثه هو أيضاً:
"كيف تبصر منصبك؟ أهو امتياز فردي أم أمانة تنتقل؟"

قرار اختبار القدرات

عاد المدير العام إلى مكتبه بعد لحظة التأمل عند النافذة. جلس،
وأمسك قلمه، وبدأ يخط ملاحظات على ورقة أمامه:
"سالم... نتائج استثنائية، لكن هل تكفي؟"

تردد قليلاً ثم دون:

الجانب الإداري: هل يستطيع تنظيم عمل يتجاوز مدرسة واحدة؟
الجانب القيمي: هل يملك القدرة على صياغة القيم في برامج
شاملة، لا مجرد أنشطة؟

الجانب المالي: هل يعرف كيف يحافظ على استدامة الموارد،
ويحوّل الفكرة إلى مشروع قائم بذاته؟

أغلق قلمه وقال لنفسه:

"إذا اجتاز هذا الاختبار، فسأبصر فيه خليفة حقيقياً".

إبلاغ سالم بالاختبار

في اليوم التالي، تلقى سالم اتصالاً من سكرتارية المؤسسة:
"السيد المدير العام يطلب حضورك صباح الغد لاجتماع خاص".
في صباح الغد، دخل سالم القاعة وهو يشعر بانقباض في صدره.
ابتسم المدير العام ابتسامة مقتضبة وقال:
"سالم... ما حققته حتى الآن عظيم، لكننا لا نقيس النجاح بمسوح
ميدانية فقط. نحن بحاجة إلى رجل يرى الإدارة كقيمة، والمال
كأمانة، والبرامج كرسالة".

سالم في نفسه "ما رسالة المدير هذه المرة!"

ثم قدّم المدير ملفاً أنيقاً.

فتحه سالم فوجد فيه:

خطة إدارية أولية لتوسيع البرنامج إلى مدرستين أخريين.
ميزانية تقديرية مع موارد محدودة، تتطلب إعادة توزيع مبتكر.
مقترح قيمى يحتاج إلى إعادة صياغة ضمن أنشطة قابلة للتطبيق.

قال المدير العام:

"هذا اختبارك يا سالم. أمامك أسبوعان. أريد أن أرى كيف تُبصر
الأرقام، والأشخاص، والبرامج... لا كأعباء متفرقة، بل كنسيج
واحد".

شعر سالم أن الأرض تميد تحت قدميه، لكن في داخله قبس صغير
من الإيمان همس له:

"المطر واحد... وزاوية الإبصار هي التي تحدد المعنى".

سالم وسماح وقراءة ملف الاختبار

جلس سالم في الشقة، والملف مفتوح أمامه على الطاولة. كان متجهّم الوجه، يقلب الصفحات ببطء.

دخل سماح يحمل كوبين من الشاي وقال:
"أرى الغيوم في عينيك... ما الأمر؟"

مدّ له سالم الملف وقال:

"المدير العام وضعني أمام اختبار. عليّ أن أقدم خطة لتوسيع البرنامج لمدرستين أخريين، مع ميزانية محدودة، وصياغة أنشطة قيمة أكثر عمقاً".

أخذ سماح يتصفح الملف، ثم قال:
"هذا ليس اختبار إدارة فقط... هذا اختبار إبصار".

رفع سالم رأسه متعجباً:
"إبصار؟"

ابتسم سماح وقال:
"انظر... الإداري العادي يرى أوراقاً وأرقاماً. أما الإبصار القيمي فيرى ما وراءها:

. في الجانب الإداري: ليست مدارس تُدار، بل بيانات بشرية تحتاج من يقودها على أساس القيم.

. في الجانب المالي: ليست ميزانية ناقصة، بل فرصة لابتكار حلول تعاونية وشراقات. المال هنا أمانة، لا مجرد رقم.

. في الجانب القيمي: ليست أنشطة لتملأ وقت الطلاب، بل جسور برمجية تُمرّر عبر الحواس والعقل والقصة والنادي... حتى تصبح القيم جزءاً من نسيجهم اليومي".

سكت لحظة ثم أضاف:

"هذا هو مسار الإبصار القيمي يا سالم: ألا ترى الإدارة والمال والتعليم كمسارات منفصلة، بل كجداول صغيرة تصب في نهر واحد: غرس القيم".

شعر سالم أن صدره بدأ ينشرح، وقال وهو يبتسم لأول مرة منذ أن تسلّم الملف:

"إذن المطلوب ليس أن أنظر للملف... بل أن أبصره. أن أراه بعيون مختلفة".

أدرك سالم مفهوم الإبصار القيمي في الاختبار:

◦ الإدارة = قيادة بشرية قيمة.

◦ المال = أمانة وفرصة ابتكار.

◦ الأنشطة = جسور متعددة الطبقات للغرس.

الإبصار الإداري

جلس سالم يرسم خارطة ذهنية على الورق.
قال لنفسه:

"النظر الإداري يرى مدارس جديدة تحتاج متابعة. لكن الإبصار يرى بيئات بشرية تحتاج قيادة بالقوة".

قسّم الخطة إلى خطوات:

. إنشاء وحدات قيمية صغيرة في كل مدرسة (لجان طلابية + نوادي قيمية).

. تدريب "قادة صغار" من المعلمين ليكونوا مسؤولين عن متابعة الغرس في موادهم.

. صياغة تقارير شهرية لا على شكل أرقام فقط، بل على شكل قصص تحوّل طلابي.

ابتسم سالم وهو يكتب:

"الخطة ليست توسعة إدارية... بل توسعة في مساحة الإبصار".

العنصر الثاني: الإبصار المالي

أمسك سالم بالميزانية المحدودة، شعر للحظة أنها قيد خانق.

ثم تذكر كلام سماح: "بالمال أمانة وفرصة ابتكار".

كتب على الورقة:

. بدلاً من شراء أجهزة باهظة، يمكن إشراك الطلاب في

مشاريع إعادة التدوير لصناعة أدوات تعليمية.

. دعوة أولياء الأمور ورجال الأعمال المحليين لدعم النادي

القيمي كشراكة مجتمعية.

. تخصيص نسبة من ريع الأنشطة الطلابية (المعارض،
المهرجانات) لصالح البرنامج.

تنفّس سالم وقال:

"الإبصار المالي يعني أن أرى المال ليس نقصًا، بل بذرة تتكاثر
بالتعاون".

الإبصار القيمي

جلس سالم يراجع قائمة الأنشطة المقترحة. بدا بعضها تقليديًا.
قال:

"الناظر يرى نشاطًا عابرًا... لكن المبصر يرى جسورًا برمجية".
أعاد صياغة بعض الأنشطة:

. درس عن النظام البيئي يتحول إلى طبقة إبصار للحكمة
والإتقان.

. إنشاء نادي الطاقة المتجددة كنشاط جماعي يربط العلم
بالمسؤولية.

. جلسات قصصية تربط بين العلماء الكبار وقيمهم (مندليف
والصدق، ابن الهيثم والأمانة العلمية).

. مسوح دورية تُظهر للطلاب نتائج التزامهم، فيبصرون
التغيير في أنفسهم.

كتب في الهامش:
"الإبصار القيمي يعني أن الطالب لا يعيش النشاط كحدث، بل
كطبقة تتراكم حتى تصوغ وجدانه".

عرض الخطة أمام المدير العام

في قاعة الاجتماعات بالمؤسسة، جلس المدير العام خلف مكتبه
الكبير، وأمامه سالم يحمل ملفه بثبات ممزوج بالرهبة.
قال المدير العام:

"هات ما عندك يا سالم... أريد أن أرى كيف قرأت الملف".

فتح سالم عرضه وبدأ:

"أولاً: في الجانب الإداري. لم أنظر إلى المدرستين الجديتين
كمبانٍ تحتاج إلى متابعة، بل كبيئات بشرية.

لذلك اقترحت إنشاء وحدات قيميّة صغيرة، يقودها معلمون
مدربون، مع تقارير شهرية لا تكتفي بالأرقام، بل تسجّل قصص
التحول عند الطلاب".

أوماً المدير برأسه باهتمام، فأكمل سالم:

"ثانياً: في الجانب المالي. الميزانية المحدودة ليست عائقاً. رأيته
بذرة للتعاون.

. سنشارك الطلاب في مشاريع إعادة التدوير لتصنيع أدوات
تعليمية.

. سنقيم شراكات مع أولياء الأمور وأهل الخير لدعم النوادي
القيمية.

. وسنحوّل بعض الأنشطة الطلابية إلى مصدر دخل للبرنامج.
هكذا يصبح المال وسيلة لإحياء القيمة، لا عائقاً أمامها".

تغيّرت ملامح المدير، كأنه يسمع شيئاً غير مألوف.
قال سالم بثقة أكبر:
"ثالثاً: في الجانب القيمي. لم أتعامل مع الأنشطة كإضافات عابرة،
بل كطبقات برمجية متكاملة:

. درس النظام البيئي يكشف طبقة الحكمة والإتقان.

. نادي الطاقة المتجددة يغرس المسؤولية والتعاون.

. قصص العلماء تربط العلم بالصدق والأمانة.

. والمسوح الثلاثة تجعل الطلاب يبصرون التغير في أنفسهم
بأعينهم".

أغلق سالم الملف وقال:

"الخطة ليست أرقاماً موزعة على جداول... بل نهر واحد يتدفّق
من الإدارة والمال والأنشطة ليصب في غاية واحدة: غرس القيم .
هذا ما أبصرته".

ساد صمت قصير في القاعة.

ظل المدير العام يحدّق في سالم مطوّلاً، ثم وضع نظارته على
الطاولة وقال بصوت عميق:

"أنت لا تقرأ الورق فقط... أنت تقرأ ما وراءه".

شعر سالم أن قلبه يطرق صدره بقوة، كأنه يسمع حكمًا يتجاوز الاختبار.

مكتب الخطوط الجوية واتصال من المطار

في صالة المطار، وقف المدير العام أمام كاونتر شركة الطيران المصرية، حقيقته إلى جانبه.
قال للموظفة بابتسامة مرتاحة:
"هل هناك مقعد بجانب الشباك؟"

أومأت برأسها وقدّمت له بطاقة الصعود. تنفّس بعمق، وأمسك هاتفه ليتصل.
ضغط على الرقم، وانتظر حتى جاءه صوت سالم من الطرف الآخر:
"نعم، سيدي المدير".

قال المدير العام بصوت تملؤه الراحة:
"أردت أن أطمئنك... لقد تمكنت للتو من الحصول على مقعد في الطائرة المتجهة إلى القاهرة. سفري اليوم لم يكن مؤكدًا، ولذلك لم أشأ أن أتعبك بمرافقتي".

جلس سالم في مكتب المدير العام، على الكرسي ذاته الذي طالما جلس فيه المدير العام، ينظر إلى الأوراق المصفوفة أمامه.
أجاب بهدوء ممزوج بالمسؤولية:

"أرجو لك رحلة موفقة، وسفرًا آمنًا. وبإذن الله سأبذل وسعي بأمانة في توسعة نطاق المؤسسة".

توقف المدير العام لحظة، يراقب الطائرات تُقلع من خلف زجاج المطار. ثم قال:

"هذا ما يطمئن قلبي يا سالم... أن المكتب أضحي في يد تبصر، لا في عين تنظر فقط".

أغلق الخط، بينما جلس سالم صامتًا على الكرسي الكبير، يشعر أن مقعد الإدارة ليس مقعدًا من خشب وجلد، بل مرآة لإبصارٍ أوسع مما ظنّ.

"لم يكن يعلم سالم أن رزقه قد كُتب له في اللحظة ذاتها التي تسلم فيها كتاب إنهاء خدماته، بل كان بمثابة كتاب ترقية، وأن باب التوظيف الذي فُتح لصديقه سماح إنما رسالته كانت له هو يوم قُبِلَ مدربًا في المدرسة. كانت يد القدر ترسم خطين متوازيين، أحدهما ظاهر بالخسارة، والآخر خفي بالمنحة... وما بينهما كان الدرس: أن النظر يريك الفقد، أما الإبصار فيكشف لك العطاء".

رسائل الإبصار

أدرك سالم من أن مسار الإبصار هو فن قراءة الرسائل المنثورة حولنا، وتحويلها إلى معابر للحكمة والقيم، فيثبت بها القلب ويستقيم بها العقل.

وكل ما يحيط بنا ليس صُدْفًا مبعثرة، بل نُثار قيمية مبعثرة في المناهج والأحداث والعلاقات، تنتظر من يُبصرها. من أبصرها نال الطمأنينة والاتزان.

فصار يردد حكمة ابن عطاء الله السكندري:
"متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء."

ولادة الفكرة – الأرق والبرق

أدار سالم المؤسسة العالمية للاعتماد القيمي باحترافية، وتمكن بفضل الله أن يحشد لها مزيدا من التعاقدات مع العديد من المدارس، وفي تلك الليلة، جلس سالم في مكتبه بالمؤسسة، وقد تراكت أمامه تقارير المدارس التي حصلت على الاعتماد القيمي. قرأها واحدة تلو الأخرى، ثم أسند رأسه إلى الكرسي وراح يحدث نفسه:

"القيم أيقظت وعي الطلاب، نعم... لكن كيف نحول هذا الوعي ليمشي على الأرض! إلى ابتكار؟ هل يكفي أن نغرس السلوك، دون أن نفتح لهم باب الإبداع؟"

ظلّ يقلب الأفكار كما لو كان يبحث عن خيط ضائع. مرت الساعات بطيئة، عقارب الساعة تجاوزت منتصف الليل، والمدينة غارقة في صمتها. أما عينيه فامتنتعتا عن النوم.

أخذ يقلب صفحات دفتره، يرسم دوائر وأسهمًا متشابكة، ثم يشطبها بيده ضجرًا.

وفجأة... برقت في ذهنه بارقة.

نهض من كرسيه كمن لدغته شرارة وقال بصوت مسموع رغم أنه كان وحيدًا:

"نعم! أن نجعل القيم بذرة للابتكار. أن تتحول المسؤولية إلى مشروع يخدم الناس، والرحمة إلى تطبيق عملي، والإتقان إلى ابتكار صناعي. سنطلق علامة فرعية جديدة... (قيم الابتكارات المجتمعية)!"

جلس من جديد، وأمسك قلمه بخط متسارع، يسجل الملامح الأولى للفكرة: مسابقات بين المدارس، ورش للطلاب، ابتكارات تنبع من القيم.

ابتسم لأول مرة منذ ساعات وقال هامسًا:
"ها قد وجدت الطريق".

في صباح اليوم التالي، اتصل بالمدير الإقليمي:
فقال له: "سيدي أقترح أن نطلق علامة فرعية جديدة، نسميها: قيم الابتكارات المجتمعية. بدل أن تبقى القيم مجرد سلوك فردي، نجعلها شرارة للابتكار المجتمعي. الطلاب أنفسهم يمكن أن يقترحوا حلولًا لمشاكل مجتمعهم".

تأمل المدير الإقليمي العام الفكرة بدهشة، ثم قال:
"فكرة جريئة... أعدد لنا تصورًا أوليًا".

إعداد التصور الأولي للفكرة

خرج سالم من مكالمته مع المدير الاقليمي وملامحه خليط بين الحماسة والرغبة. كان يعلم أن الفكرة الجيدة لا تكفي، بل لا بد من خطة محكمة.

في مساء ذلك اليوم، أغلق هاتفه الجوال، وضع إبريق القهوة على الطاولة، ونشر أوراقه البيضاء أمامه.

بدأ يكتب العنوان بخط عريض:

تصور أولي لعلامة فرعية: قيم الابتكارات المجتمعية.

ثم خطّ تحته ثلاثة أسئلة رئيسة:

. ما الهدف؟

. من المستفيد؟

. كيف نحقق ذلك؟

جلس يتأملها قليلاً، ثم أخذ قلمه وبدأ ينسج الإجابات:

1. الهدف: تحويل القيم من مجرد سلوك مدرسي إلى طاقة

إبداعية تقدّم حلولاً واقعية لمشاكل المجتمع.

2. المستفيدون: الطلاب أولاً، ثم المدارس، ثم المجتمع

بمؤسساته.

3. آلية التنفيذ:

◦ إطلاق مسابقات بين المدارس المعتمدة قيمياً، يكون الابتكار فيها مشروطاً بارتباطه بقيمة محددة (مسؤولية، رحمة، إتقان...).

◦ تنظيم ورش عصف ذهني بإشراف المعلمين لتوجيه الطلاب نحو تحويل القيمة إلى فكرة.

◦ إقامة معارض مدرسية لاختيار المشاريع المتأهلة، ثم مسابقة كبرى على مستوى المدن.

◦ منح جوائز عملية (دعم مالي/شراكات) لتطبيق الابتكارات المميزة.

ولم يكتفِ سالم بذلك، بل أضاف قسمًا خاصًا بعنوان:
عوائد المؤسسة من العلامة الجديدة:

• توسيع شبكة التعاقدات مع المدارس.

• تعزيز سمعة المؤسسة كجهة لا تكتفي بالاعتماد، بل تُطلق مسارًا إبداعيًا.

• استحداث مصدر دخل إضافي عبر رعاية الشركات للمسابقات.

حين انتهى، نظر إلى أوراقه وقد امتلأت سطورًا ورسومًا وخرائط ذهنية. شعر أن الفكرة التي ولدت في ساعة أرق قد تحولت الآن إلى هيكل واضح يمكن أن يُعرض أمام أي مسؤول.

طوى الملف ووضعه في حقيبة جلدية، وقال في نفسه:
"غداً سأضع بين يديه تصوّرًا لا يكتفي بالجرأة... بل يقنعه – بإذن
الله - أن هذه العلامة ضرورة".

التأمل قبل العرض

في صباح اليوم التالي، جلس سالم في المقهى القريب من المؤسسة،
يضع حقيبته إلى جانبه.

مدّ يده إلى داخلها وتلمّس الملف الجلدي الذي أعده طوال الليل.
شرب رشفة من قهوته، وأطلق زفرة طويلة، ثم ابتسم ابتسامة
باهتة.

"منذ أشهر فقط كنت أخرج من شركتي مثقلًا بورقة إنهاء
الخدمة... واليوم أدخل إلى المؤسسة العالمية وأنا أحمل بيدي فكرة
قد تغيّر مسارها. ما أعجب تقلبات الرزق! كان النظر يريني
خسارة، أما الإبصار فيكشف الآن أن الخسارة كانت بابًا للإذن
بالتغيير".

رفع عينيه إلى النافذة، فإذا بأشعة الصباح تتخلل الزجاج وتنعكس
على الطاولة.

تمتم:

"حتى النور يعرف طريقه من بين الزوايا... فكيف أعجز أنا عن
إيجاد طريقي؟"

نهض، حمل حقيبته، ومضى بخطوات ثابتة نحو المؤسسة. كان يشعر أن هذه اللحظة ليست مجرد عرض فكرة، بل لحظة إثبات: هل يستطيع أن يحوّل بارقة أرقٍ إلى مسار مؤسسي جديد؟

عرض التصور المكتوب

دخل سالم مكتبه بخطوات متزنة، وفي يده الملف الجلدي. طلب من السكرتير أن يوصله عبر الشبكة العنكبوتية بالمدير الإقليمي.

بعد لحظات رد السكرتير قائلاً:
"تفضل... المدير بانتظارك".

وقف المدير الاقليمي خلف مكتبه، ينظر إلى سالم بعين فاحصة.
قال بصوت هادئ:
"أحضرت التصور؟"

افتتح سالم الاجتماع بتحيةة السلام، وفتح الاستراض وبدأ يشرح:
"هذه العلامة نسميها: **قيم الابتكارات المجتمعية**. الفكرة أن القيم لا تتوقف عند السلوك، بل تتحول إلى طاقة ابتكار. والآلية كالتالي:
. مسابقات بين المدارس المعتمدة، يكون الشرط الأساسي أن يُبنى الابتكار على قيمة محددة.
. ورش عصف ذهني بإشراف المعلمين لربط الفكرة بالقيمة.

. معارض مدرسية للتصفيه، ثم مسابقة كبرى على مستوى المدينة.

. جوائز عملية: دعم مالي أو شراكات لتطبيق المشاريع".

قلب الصفحة التالية وأكمل:

"المستفيدون: الطلاب أولاً، ثم المدارس، ثم المجتمع. أما العوائد على المؤسسة فهي متعددة:

. توسيع شبكة التعاقدات مع المدارس.

. تعزيز سمعتنا كجهة تربط القيم بالحلول الواقعية.

. استحداث مصدر دخل إضافي عبر رعاية الشركات، ولجوائز المسابقات".

ختم وقال بثقة:

"بهذا نكون قد نقلنا القيم من صفوف التعليم إلى ساحات المجتمع".

ظل المدير صامتاً للحظات، يقلب في ذهنه الذي استوعبه.

ثم قال بدهشة ممزوجة بالإعجاب:

"لم أتوقع أن تتحول فكرتك إلى خطة بهذه الصياغة. أنت لا تفكر كموظف يبحث عن فرصة... بل كمؤسس يصنع مساراً جديداً".

ابتسم سالم ابتسامة خفيفة، وقال:

"القيم إذا أبصرناها جيداً، لا تبقى درساً في كتاب... بل تصبح مشروعاً يغير المجتمع".

علّق المدير الاقليمي، وقال:
"سالم... سنمضي في هذه الفكرة. ابدأ بالخطوة الأولى: أطلق
المسابقة".

خرج سالم من المكتب وهو يحمل شعورًا لم يعرفه من قبل. لم يكن
مجرد موظف ينفذ تعليمات... بل صار صانع مسار.

قطرة مطر

بينما كان سالم يطالع أوراقه، حرّك كتفه إلى الخلف وعدّل جلسته
على الكرسي. شعر بانقباض خفيف عابر في جانبه، سرعان ما
زال وهو يواصل القراءة.
لم يلتفت للأمر، بل انشغل بتسطير ملاحظاته على الهامش، ثم
نهض ليكمل حديثه مع أحد زملائه.
كان الأمر أشبه بظلّ عابر، مرّ كما تمر نسمة هواء في غرفة
مغلقة، لا تُبقي أثرًا يُذكر.
وظل سالم ماضيًا في عمله، كأن شيئًا لم يكن.

دعوة مدراء المدارس

أرسلت دعوات لمدراء المدارس مشفوعة بتاريخ لعقد اجتماع في
مقر المؤسسة، وفي يوم الاجتماع، وقف سالم في قاعة مكتظة

بمديري المدارس المعتمدة. وبدأ بعد اسم الله قائلاً:
"نعلن اليوم انطلاق مسابقة: ابتكارات مجتمعية من قيمنا. المشاركة
مفتوحة لطلابكم، والفوز لن يكون بالمشروع الأفضل تقنياً، بل
بالمشروع الذي يُجسّد قيمة حياة، وستتبارى الشركات معنا في
رعاية جوائز المسابقة"

تبادل بعض المدراء نظرات متسائلة، بينما علت على وجوه آخرين
ملامح إعجاب. وزّع سالم كتيباً صغيراً يوضح القيم المستهدفة:
المسؤولية، الرحمة، الإتيقان، الأمانة... ومعايير التقييم: جدوى
الفكرة، وضوح القيمة، وإمكانية التطبيق.

ورش تحويل القيم لمنتجات ومشاريع

احتضنت المدارس الفكرة، وفي الأسابيع التالية، تحولت المدارس
إلى ورش عمل نابضة. جلس الطلاب في مجموعات متفرقة داخل
قاعاتهم، يمثلون حماساً:

- . فريق يتناقش حول تصميم جهاز لترشيد الماء.
- . فريق آخر يفكر في تطبيق إلكتروني لرعاية كبار السن.
- . مجموعة ثالثة تبحث عن طريقة مبتكرة لإعادة التدوير.

المعلمون يقتربون منهم يسألون: "أين القيمة في فكرتكم؟"
فيرد أحد الطلاب بعينين متقدتين: "هي قلب المشروع... المسؤولية
نفسها!"

حراك الطلاب والأهالي

تحولت المدارس بعد إعلان المسابقة إلى خلية نحل. في كل زاوية مجموعة من الطلاب، وجوهم متحمسة، دفاترهم وأقلامهم مبعثرة أمامهم، بعضهم يحمل أوراقًا عليها رسومات لمجسمات صغيرة، وآخرون يجلسون أمام حواسيب يبحثون عن حلول عملية.

وهكذا تنشط نوادي القيم في المدارس على مر الأسابيع، ففي أحد الفصول جلس فريق يتناقش بصوت مرتفع:

"لنختار قيمة المسؤولية، ونبني عليها جهازًا لتوفير الماء".
يقاطعه زميله بحماس:

"لكن كيف نجعل الجهاز عمليًا ورخيصًا؟"
يتدخل طالب بيده ورقة مليئة بالملاحظات:

"نستطيع استخدام مواد معاد تدويرها... هكذا نجمع بين المسؤولية والإتقان".

وفي قاعة أخرى، كانت مجموعة من الطالبات يفكرن في مشروع لرعاية كبار السن. قالت إحداهن:

"الرحمة ليست كلامًا... لماذا لا نصمم تطبيقًا بسيطًا يُذكر العائلات بزيارتهم؟"

فتجيب أخرى بعينين لامعتين:

"وسيكون التطبيق باسم زيارة رحمة!"

أما البيوت فكانت تعيش أجواء غير مألوفة. جلس الآباء والأمهات على موائد العشاء وهم ينصتون لأبنائهم يشرحون مشاريعهم بحماس.

قال أحد الآباء وهو يهز رأسه من الدهشة:
"من كان يظن أن ابني، الذي كنت أراه ليل نهار غارقًا في هاتفه،
أصبح يتحدث عن مشاريع وحلول لمشاكل المجتمع؟"

وأضافت أم أخرى بابتسامة فخر:
"ابنتي كانت لا تفارق شاشة الهاتف، واليوم صارت تسهر مع
زميلاتها تكتب مقترحات لمشروع عن إعادة التدوير. أشعر أن
عقلها كبر، وأن قلبها صار متعلقًا بخدمة الناس".

لم يكن الانبهار مقتصرًا على الأهل فقط، بل كان الحماس يشتعل
في نفوس الطلاب أنفسهم. صاروا يتطلعون إلى المستقبل بعيون
مختلفة:

. أحدهم قال لأبيه: "إذا فزنا، سأكمل دراستي في الهندسة
لأصنع حلولًا أكبر".

. وأخرى قالت لأمها: "أريد أن أصبح عالمة بيئة... القيم
جعلتني أحب الطبيعة".

في الأحياء والمجالس، بدأ الحديث يتغير. صار الناس يتداولون
أخبار المسابقات، والأبناء يشرحون بفخر مشاريع مدارسهم،
والآباء يلمسون ارتقاءً حقيقيًا في فكر أبنائهم. لم يعد الفوز مجرد
شهادة أو جائزة، بل أصبح حلمًا مشتركًا: تحقيق فوز مجتمعي
باسم المدرسة.

شرارة الابصار

وفي أعماق سالم، كان المشهد بالنسبة له أعظم من أي وسام. كان يرى بأم عينيه كيف تحولت القيم من نصوص في دفتر إلى شرارة في قلب طالب، ومن حصة مدرسية إلى أفق واسع يُعيد تشكيل بيوت وأسر بأكملها.

لم يلبث أن جاء يوم التصفيات. أقامت كل مدرسة معرضًا داخليًا، تزيّنت أركانها بلوحات تحمل عناوين القيم. وقف الطلاب أمام مشاريعهم البسيطة، يشرحون بحماس كيف ربطوا بين ما تعلموه وبين ابتكاراتهم. كان الجمهور يصفق بحرارة، والمعلمون ينظرون بفخر.

وفي يوم المسابقة الكبرى، ازدانت قاعة المدينة بلافتة ضخمة كتب عليها: **الابتكار قيمة... ومسار القيمة خدمة المجتمع.** جلس أولياء الأمور والإعلاميون في المقاعد، بينما صعدت الفرق تباعًا إلى المنصة، ولجنة التحكيم التي تم تشكيلها من أولياء أمور، وممثلي الشركات ومدربين من المؤسسة العالمية لاعتماد القيم اتخذت ناحية.

- طلاب عرضوا توربينًا صغيرًا يولّد كهرباء من طاقة الرياح.
- آخرون قدّموا جهازًا لتقليل استهلاك الماء في البيوت.
- فريق ثالث روى قصته في إطلاق حملة توعوية ضد التبذير، مستندة إلى قيمة الأمانة.
- وهكذا فرق طلابية بعد فرق.

وترتجّ القاعة بالتصفيق بعد كل عرض. أما سالم فجلس في الصف الأمامي، يتابع بعين دامعة من شدة التأثر، وهو يتمتم في داخله: "ها هي القيم تتحول إلى طاقة خلاقة".

تغطيات وسائل الاعلام

في صباح اليوم التالي، كانت الصحف تمتلئ بالعناوين: **"طلاب يحولون القيم إلى حلول لمشاكل المجتمع"**. كتب أحد الصحفيين: "ما شهدناه أمس لم يكن نشاطاً مدرسياً عابراً، بل مختبراً قيماً يعلم أبناءنا كيف يواجهون مشكلاتنا بعيون جديدة". ولم يقتصر الأمر على الصحافة المكتوبة. البرامج التلفزيونية استضافت الطلاب الفائزين، ووسائل التواصل الاجتماعي اشتعلت بالوسم # **:الابتكار_قيمة**. الناس في المقاهي والأسواق أخذوا يتداولون قصص الطلاب بإعجاب: "تخيل... أولاد مدارسنا يفكرون بحلول لمشكلة الماء!!" فإيرد آخر: "هؤلاء ليسوا مجرد طلاب، هؤلاء بناءة المستقبل".

كرة الثلج

وصل صدى الحراك إلى المكاتب الحكومية. جلس وزير الشؤون أمام مكتبه يقلب ملفاً جمع فيه قصاصات الصحف وتقارير الإعلام. رفع رأسه وقال لمساعدته: "إذا كان هؤلاء الطلاب قادرين على ابتكار حلول عملية، فلماذا لا

نستفيد منهم نحن؟"
ثم تناول الهاتف بقرار حاسم:
"رتّبوا لي لقاء عاجلاً مع المؤسسة العالمية لاعتماد القيم. أريد أن
أرى كيف نستثمر هذه التجربة".
واتصل بوزير التربية يهنئه على دعم الوزارة لهذه المبادرات.

الظرف المختوم

في صباح هادئ، كان سالم جالساً في مكتبه بالمؤسسة حين دخل
المراسل يحمل ظرفاً أنيقاً مختوماً بالشعار الرسمي.
فتحه بسرعة، وإذا به خطاب رسمي:
"دعوة من مجلس الوزراء لاستعراض ما حقّقته المؤسسة عبر
مبادرة (قيم الابتكارات المجتمعية)".
توقف سالم لحظة، شعر بدقات قلبه تتسارع.
"هذا ليس عرضاً أمام طلاب أو معلمين... هذه المرة أمام صانعي
القرار".

منذ تلك اللحظة، غرق في حالة استعداد قصوى.
فتح ملفاته الإلكترونية، وجمع الصور واللقطات من معارض
المدارس، ومقاطع فيديو لطلاب يعرضون ابتكاراتهم، ونسخاً من
المقالات التي غطت الحدث في الصحف والتلفاز.
على مكتبه، أخذ يُرتب الأوراق:

- . **الصفحة الأولى:** الفكرة الأولى التي خطها في دفتره ليلة الأرق "القيم أيقظت الوعي... لكن كيف نحوله إلى ابتكار؟"
- . **الصفحات التالية:** خطوات التنفيذ، من الورش المدرسية إلى التصفيات والمعرض الكبير.
- . **الختام:** نتائج ملموسة، وشهادات حية من الطلاب والأهالي.
- جلس سالم مع فريق صغير من الزملاء، وطلب منهم إعداد عرض بصري أنيق:
- . في الشريحة الأولى: صورة طالب يحمل ابتكاره بابتسامة فخر.
- . في الثانية: جملة تلخص الفكرة "من القيم إلى الابتكار... ومن الابتكار إلى المجتمع".
- . وفي الختام: خريطة تُظهر كيف يمكن توسيع التجربة لتغطي كل المدارس في البلاد.
- لكن الأهم كان ما دار في ذهنه وهو يستعد:
"لن أذهب لأعرض مسابقة... سأذهب لأعرض فلسفة. أن القيم ليست خطابًا، بل بذور ابتكار. إن أبصرناها جيدًا، صارت طاقة تبني المجتمع".
- وقف أمام المرأة تلك الليلة، يرتب مستعرضًا ثوبه. نظر إلى عينيه وقال لنفسه بصوت خافت:
- "غداً، لا أعرف مجلس الوزراء بسالم... بل أعرفهم بفكرة وُلدت من بارقة ليل، وأصبحت واقعًا يحلم به وطن".

أبرق سالم المدير الإقليمي برسالة نصية عن اجتماع الغد، ليتثبت بسعة ما يمكن أن يتمتع به حيال ما سيطلبه مجلس الوزراء، فأخذ التوصيات والإذن بذلك.

دخل سالم إلى قاعة مجلس الوزراء. جلسوا قبالة وزراء التربية والشؤون والصناعة والتجارة وآخرون، فيما ارتفعت على الشاشة صور الطلاب وابتكاراتهم.

فختم سالم عرضه قائلاً:

"هذه المسابقة لم تكن ترفاً مدرسياً، بل جسدت كيف تتحول القيم إلى ابتكارات عملية لحل مشاكل المجتمع".

أخذ الوزراء يتبادلون التعليقات بإعجاب:

. وزير الصناعة قال: "هذا النهج يجب أن يكون جزءاً من ورشنا الوطنية".

. وزير الشؤون أضاف: "نريد أن ندمج هذه المبادرات في برامجنا الاجتماعية".

واختتم رئيس الجلسة القرار بصوت واضح:

"من اليوم، تُعتمد ورش الابتكارات القيمة كمنهج رسمي في عمل الوزارات. بإشراف من وزارة التربية وعضوية ممثلة من كافة وزارات الدولة"

بعد ثلاثة أعوام

لم تكن الأعوام الثلاثة التي تلت انطلاق قيم الابتكارات المجتمعية أعوامًا عادية، بل كانت مليئة بالحراك المتصاعد.

سالم، الذي بدأ فكرته بليلة أرق ودفتر ملاحظات، صار اليوم يتابع الأخبار الدولية بعين مختلفة؛ عين ترى الفرص كما ترى التحديات.

في صباح ما، جلس في مكتبه يقلب بين صفحات تقرير مترجم عن مبادرات غربية.

قرأ العنوان الأول "إطلاق برلمانات محلية للمبادرات المجتمعية المبتكرة في عدد من الدول الأوروبية".

أطرق قليلاً، وقال في نفسه:

"إذن، هم أيضاً أدركوا أن الحلول تأتي وفق محور قيمي من الناس... من الشباب، من المدارس، من الورش الصغيرة".

ثم قلب الصفحة التالية، فاستوقفه عنوان آخر:

"مؤسسات أوروبية تطلق مسابقات دولية لحث الشباب على تقديم حلول مبتكرة لمشاكل التنمية في دول محددة".

ابتسم بمرارة خفيفة:

"حتى هم يوسعون التجربة لتشمل العالم... ونحن؟"

لم يكتف سالم بالملاحظة. جلس تلك الليلة يكتب مقترحاً مطوّلاً، وضع على غلافه:

"مؤسسة وطنية للابتكارات المجتمعية – رؤية مستقبلية".

في مقدمته كتب:

"إذا كانت الدول الأجنبية قد سبقتنا بمسارين: برلمانات محلية للمبادرات، ومسابقات دولية للمشروعات التنموية، فإن مبادرتنا القيمة تستحق أن تُحتضن مؤسسيًا، لتكون مرجعًا وطنيًا وعالميًا في آنٍ واحد".

ثم أضاف:

"أقترح أن يعتمد مجلس الوزراء تأسيس مؤسسة وطنية متخصصة بالابتكارات المجتمعية، على أن تتولى المؤسسة العالمية للاعتماد القيمي إدارتها والإشراف عليها، بالتنسيق مع مؤسسات الدولة، حتى نضمن أن تبقى جذورها في التربة القيمة التي انطلقت منها".

حاول سالم اختبار الفكرة حين عرض مقترحه لوزير التربية ليعرضه على مجلس الوزراء، إذ لم يكن يراه كفكرة جديدة فحسب، بل كضرورة تاريخية.

وقتها بيّن للوزير وقال بثبات:

"ثلاثة أعوام أثبتت أن أبناءنا قادرون على تحويل القيم إلى حلول عملية. واليوم، العالم يتسابق في هذا المضمار، فإما أن نكتفي بالمشاهدة، أو أن نتبوأ موقع القيادة".

ثم أردف قائلاً: "لعلنا ننطلق في المرحلة التالية ليس عبر شريحة الطلبة في المدارس، بل لعموم شرائح المجتمع"

استوقف الوزير سالم قائلاً: "ولكن أفدني بنماذج عما تتحدث عنه"

استعرض سالم:

نموذج المدارس العائمة في دولة بنغلاديش كمثال، فمع شحة الأراضي المغمورة بماء المطر، تم اعتماد المراكب كفصول دراسية لتجاوز الأزمة.

نموذج آخر في الشرب من الماء الأسن، إذ صار ممكناً في دول أفريقية تشح فيها مواسم الامطار، وذلك عبر أنبوب لا يتجاوز طوله عن 30 سم قارد على فلترة الماء مما يعلق به من أوساخ وميكروبات، والأمثلة لا حصر لها لسعادة الوزير.

بذرة العدوى القيمة المجتمعية

في تلك الأيام، كان سالم يقلب فكرته الجديدة وهو يتمشى في ساحة عامة. كان يتساءل في نفسه:

"المسابقات المدرسية حققت نجاحاً، لكن كيف نرتقي بالابتكار ليصبح شأنًا مجتمعيًا لا يخص الطلاب وحدهم؟"

عاد إلى مكتبه، وجلس طويلاً أمام سبورة بيضاء خطّ عليها جملة واحدة:

"من المدرسة إلى المجتمع... كيف؟"

راح يرسم أسهمًا متقاطعة حتى توقفت يده عند عبارة كتبها بخط عريض:

"العدوى القيمة".

ابتسم وكأن الضوء انبثق أمامه.

"نعم... إذا انفتح مسار القيم على الناس جميعًا، لا يبقى محصورًا في حصة أو صفّ. العدوى تبدأ من الطلاب، ثم تنتقل إلى أسرهم، ثم إلى مجتمعهم".

في مساء اليوم التالي، دعا مديري المدارس المستوفية للاعتماد القيمي إلى اجتماع موسّع. اجتمعوا في قاعة مؤنثة ببساطة، وجلس سالم بينهم يشرح بفصاحة:

"لقد أثبتتم نجاحًا باهرًا في اعتماد القيم داخل مدارسكم، لكن علينا أن نخطو خطوة أبعد. أقترح أن تُفتح نوادي القيم في كل مدرسة، لكن ليس للطلاب فقط... بل للعموم. من أراد من الناس أن ينخرط في ورش هذه النوادي فله ذلك: الآباء، الأمهات، الشباب العاطلون عن العمل، وحتى أصحاب الحرف".

أحد المدرّاء رفع حاجبه متعجبًا:
"نوادي القيم للعموم؟ ألن يكون هذا عبئًا إضافيًا؟"

ابتسم سالم وقال بثقة:

"بل سيكون تيارًا أوسع. نحن لا ننقل القيم وحسب، نحن نُعرّض الناس لمجرى تحويلها إلى منتجات ومشاريع. وحين تتوسع التجربة، ستجدون أن المجتمع كله بدأ يعيش روح الابتكار القيمي... وما هو البرلمان المجتمعي للابتكارات إلا نتيجة طبيعية لهذا المجرى".

ساد الصمت لحظة، ثم بدأت الوجوه تنفرج. أحدهم قال:
"فكرة عظيمة... سنجعل المدارس منارات للمجتمع كله".

خرج سالم من الاجتماع وهو يشعر أن بذرة جديدة قد زُرعت.
لم يعد الحديث عن مدرسة أو مسابقة، بل عن مسار مفتوح للناس
جميعًا.

تمتم وهو يغادر القاعة:
"إذا كانت القيم قد وجدت مجراها في التعليم، فالآن وقت أن تجد
مجراها في المجتمع... ومن هنا سيولد برلمان الابتكارات
المجتمعية".

دليل تحويل القيم لمنتجات ومشاريع

بدأ يؤصل سالم لمشروعه بتحرير كتيب كي يكون متاحا للراغبين
بالانضمام للنوادي، فكتب:

استلال القيم من الأشياء

استلال القيم هو فنّ تأمل خصائص الأشياء من حولنا، جمادًا كانت
أو نباتًا أو غازًا أو مادة عطرية، ثم ربط هذه الخصائص بالسلوك
الإنساني، لاستخلاص قيم عليا تؤسس للتربية والتركيزية.
هو منهج يجعل كل ما في الكون "كتابًا مفتوحًا"، ينطق بالقيم لمن
أحسن النظر.

ولكن كيف يتم استلال القيم من الأشياء؟

من الجمادات

- . الحديد :قيم الثبات والصمود والتوازن بين الشدة واللين.
- . النحاس :قيم التعاون والتوصيل والمرونة.
- . القطن :قيم الرحمة والاحتواء والستر.

من الغازات

- . الهيدروجين :قيم التواضع، والبساطة، والشمول والعطاء.
- . الكربون :قيم المحورية، التنوع، التضحية، الصفاء.

من الذرة

- . قيم الدقة، المحورية، التعاون (الروابط)، وضبط القوة الكامنة.

من النبات والعطور

- . ورقة الشجر :قيم العطاء، التجدد، التواضع، النظام.
- . دهن العود :قيم التضحية، الأثر الطيب، الهيبة، التوازن.
- . دهن الورد :قيم اللطف، المحبة، التجديد المستمر.

من الألوان

. الأبيض = الصفاء، الأسود = الهيبة، الأخضر = الحياة،
الأزرق = السكينة، الأحمر = التضحية، الأصفر = البهجة،
البنفسجي = الحكمة، البرتقالي = الإبداع، الرمادي =
التوازن.

من الأشكال الهندسية

. الدائرة: الوحدة والانسجام.
. المربع: العدل والاستقرار.
. المثلث: التوازن والتدرج نحو الهدف.

من الرياضيات

. المعادلات المتوازنة ⇐ العدل.
. النسبة والتناسب ⇐ الاعتدال.
. المتسلسلات ⇐ المثابرة.
. الصفر ⇐ التواضع.
. الاحتمالات ⇐ المسؤولية.
. الأشكال الهندسية ⇐ النظام.

. المساحة والحجم ⇨ الاحتواء.

. اللانهاية ⇨ الأمل والخلود.

نهج التغيير

حين بدأ الناس يتوافدون إلى نوادي القيم المفتوحة، لم يعد سالم بحاجة إلى أن يقنع أحداً. كان يرى الأمهات يدخلن الورش برفقة أبنائهن، والحرفيين يشاركون في أنشطة تحويل القيم إلى منتجات، والشباب يتبارون في اقتراح مشاريع مجتمعية صغيرة.

جلس في ركن القاعة يراقب المشهد بعين مختلفة، وقال في نفسه: "هذه المرة، الطلب لن يأتي مني... بل من الناس أنفسهم. هم من سيطالبون بتدشين مؤسسة ترعى هذه المبادرات. هذه ليست فكرتي وحدي، بل مطلب المجتمع".

ابتسم وهو يستعيد الدرس الذي تعلّمه مراراً من كيف تبصر: "الأمر ليس أن تسأل: ماذا تبصر؟ بل: كيف تبصر؟"

وتذكر ما كان يردده لنفسه في بداياته: "التغيير ليس أمراً يُفرض بالقوة... بل بذرة تُبذر في أرض خصبة، ثم تُسقى وتُحمى حتى تستوي على سوقها. وحين تنمو، تحقق الذي تريد وأكثر".

كان يشعر أنه قد انتقل من دور المبادر الفرد، إلى دور الزارع الذي يكتفي بأن يضع البذرة في موضعها الصحيح، ثم يترك للزمن والمجتمع أن يحتضنها حتى تثمر.

رسالة الألم

لم يكن سالم يتصور أن المغص البسيط الذي باغته في مساء عابر سيكون بابًا لمرحلة جديدة. في البداية تجاهله، ثم لما عاد مرات متكررة واشتد، لم يجد بدءًا من مراجعة الأطباء. واحد تلو الآخر، حتى اجتمع رأيهم في تشخيص واحد: **تليف في الكبد**، مرض ثقيل لا يُداريه التفاؤل وحده.

جلس سالم وحيدًا في غرفته بعد الخبر، يتأمل جدارًا أبيض صامتًا، ثم خطر له:

"ما هذا الألم إلا صورة أخرى من صور المطر... كنت أراه في الماضي قطرات متساقطة، مختلفة عند كل ناظر، وها هو الآن يعود إليّ في نسخة كربونية، لا كآلم ينهش الجسد، بل كرسالة تطرق القلب".

تمتم بصوت خافت:

"الألم ليس عدوًا... هو رسول. والرسول لا يجيء من نفسه، بل من مُرسل كريم. فكيف أزجره؟"

رفع عينيه إلى السماء، وقال:

"إن كان المرض رسولًا، فأنا أكرمه. لا بالاستسلام، بل بالامتثال. أباشره بالدواء، وأرفعه إلى الشافي جل جلاله تعبدًا وخضوعًا".

انتقل سالم إلى المستشفى، وعلى سريرهِ الأبيض، صار يراقب من بعيد البذرة التي غرسها. لم يعد حاضراً بين قاعات المدارس ولا في اجتماعات الوزارات، لكن أخباره تأتيه كل يوم:

. مدير مدرسة يكتب له عن ورشة قيم امتلأت بالزوار من الأهالي.

. صحيفة تنشر عن مشروع ابتكاري خرج من أحد النوادي ليُجرَّب في حي شعبي.

. نشرة أخبار تذكر أن الحكومة تناقش "برلمان الابتكارات المجتمعية" كخطوة وطنية قادمة.

كان يبتسم وهو يقرأ ويستمتع.
"ها هي البذرة التي وضعتها بيدي الصغيرة... صارت شجرة يافعة تظلل المجتمع. والآن، لم يعد يهم من يواصل العناية بها، فقد آن أن يتسلم آخرون الإبحار للمرحلة القادمة".

أغمض عينيهِ، وشعر أن دوره قد استُوفي، وأن الله قد كتب له أن يُسلم الراية في الوقت الذي شاء هو، لا الوقت الذي شاء سالم.

ابصار وعي التسليم

لم يكن سالم يظن أنه فشل لأنه لم يستكمل الطريق.
كان يعلم أن الفشل الحقيقي ليس أن يتوقف الجسد، بل أن تتوقف

الفكرة. أما هو، فقد وضع البذرة، ورعاها حتى نبتت، ورأى بأم عينه خضرتها الأولى.

تمتم وهو ينظر من نافذة غرفته في المستشفى إلى الأشجار في الخارج:

"الشجرة لا تفشل حين يغادرها الزارع الأول... فهي تواصل نموها بأمطار الله وأنفاس الريح. كذلك القيم، ما دمت قد وضعتها في أرض صالحة، فإنها ستجد من يسقيها ويحرسها".

أحس براحة غامرة، وكأن عبئاً ثقیلاً أزيح عن كتفيه. لم يعد يهمه أن يُذكر اسمه في الأخبار، أو أن يُعرف أنه صاحب الفكرة الأولى. المهم أن القافلة تسير، وأن العدوى القيمية انتشرت، وأن المجتمع صار أقرب لأن يصوغ برلماناً للابتكار من ذاته.

الغرفة البيضاء

في الغرفة البيضاء بالمشفى، كان سالم مستنداً إلى وسادته، يقلب ببطء صفحات الجريدة اليومية.

إلى جانبه جلس سماح – منشغلاً بتحضير ما يحتاجه من ضيوف لم ينقطعوا عن زيارته.

سكون هادئ يلف المكان، لا يقطعه سوى خشخشة الورق بين يديه. وفجأة... انسابت دمعة من عينيه، دمعة صامتة بلا أنين.

اقترب منه صديقه سماح لترى عينه ما يقرأ، فإذا بالعنوان العريض يسطع أمامها:

"مجلس الوزراء يقرّ قانون تدشين مؤسسة وطنية معنية بالابتكارات المجتمعية".

ابتسم سالم ابتسامة خفيفة، وأغمض عينيه كمن يضع حمله أخيرًا. لم ينطق، لكن الدمع قال كل شيء: أن الفسيلة التي غرسها قد صارت شجرة يستظل بها وطن بأكمله.

في يوم الجمعة، ومن وراء زجاج النافذة التي يطل عليها سالم وهو راقد على سريره، تسالت خيوط الشمس لتعلن أن النهاية لم تكن نهاية... بل إشراقة بدء جديد.

ابتسم سالم ابتسامة مطمئنة، حين وصل وهو يقرأ
(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرٍ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)
وأغلق عينيه

كانت دموعه هذه المرة دموع إشراق، لا دموع ألم. لقد أبصر أخيرًا أن كل خطوة بدت له عثرة، وكل ألم حسبه انكسارًا، لم يكن إلا ممرًا يصل به إلى هذه اللحظة: لحظة اكتمال الغرس.

وكان لسان حاله يتمتم بما قاله ابن عطاء الله السكندري:
"ما تيسّر من الطاعات فهو من برّه، وما تعسّر منها فهو من قهره، فكن في الجميع عبدًا له".

تم بحمد الله

يمكنكم الآن التقديم للمؤسسة العالمية لاعتماد القيم عبر الضغط
على الرابط التالي:



<https://giva.bevol.org/profile/92303>

GIVA

أكاديمية GIVA

رابط تعريفى بالمؤسسة العالمية لاعتماد القيم عبر تطبيق ذكاء
اصطناعي:

<https://chatgpt.com/g/g-676fa29aa8fc8191a7878cebd5b6acb4-lmns-l-lmy-l-tmd-lqym-giva>

مراجع مزيدة معززة لمسار رواية سالم ورسائل المطر

كتاب كيف تبصر

<https://bit.ly/2MkLV2z>

كتاب مقام الشكر عبر نهضة أمة

<https://wp.me/p3WskZ-bYn>

كتاب استلال القيم كيف يكون

<https://wp.me/p3WskZ-cb9>